أصوات مناهضة للاستدمار

إِيميه سيزير

خطاب حول الإستدمار

توطئة بقلم
عبد العزيز بوتفليقة

ترجمة الدكتور ميشال سطّوف
مراجعة وإشراف : سمير سطّوف



منشورات ANEP

خطاب حول الاستدمار

توطئة بقلم

عبد العزيز بوتفليقة

ترجمة الدكتور ميشال سطوف

مجموعة التراث

في نفس المجموعة

- حرينـــا، فرنسيس جانســون
- مجد السيف،بول فينيه دوكتون

منشورات © ANEP
ISBN: 9947-21-311-0

تصدير

عليّ أن أفصح للقارئات والقراء أني كنت قد اتخذت مبادرة الإسهام في إعادة نشر بعض الأصوات الهامة المناهضة للكولونيالية، على إثر الغثيان الواسع الذي انتابنا جميعاً، نحن الذين اعتقدنا أن «الوحش الخسيس» تجندل بصورة نهائية، وألقي في السكون، حين هبطت قلوع (المراجعة التحريفية) على أوروبا، خاصة فرنسا، بشأن النظام الأخلاقي للاستدمار.

وعلى مرّ الشهور، فقد هذا الموضوع في خضمّ الحوارات السياسية والإعلامية صفته، كإرث سلبي بغيض للمغامرة الأوروبية، ليتحول إلى مجرد استعمار لا ضرر منه، يمكن – عن سابق دراية، ودون نهاية – التأويل الخبيث لمحاسنه ومساوئه ، حتى يصبح في الحصيلة مساهمة «إيجابية» جد لطيفة «للحضور الفرنسي».

إن إعادة طرح الموضوع ، بصيغة إثارة توهّمية ، وانتقامية من العفونة المقززة لإمبراطوريات انطوت أمام الانتصار العسكري والسياسي والأخلاقي للشعوب، من ضحايا القهر الاستدماري، إنما هو سلوك فظ وغبي. فلقد سبق وصدر الحكم على الاستعمار منذ وقت طويل عبر السلاح والكلمة.

ولقد انطوى هذا الحكم الصادر بصيغة توافقية، من قبل مجموع شعوب الكوكب ، على إدانة تامة وقطعية دون أدنى ظرف مخفف.

وعلى هذا الحكم أن يخدم - إجبارياً - كمعلم مشترك للذاكرة الراهنة لجميع شعوب المعمورة، كي لا ينسدّ مستقبلها الذي لا يمكن له أن يكون موضع تفكير وفعل إلاّ على قاعدة الاستدلال الطبيعي لمعاداة الاستعمار: الاعتراف بحرّية الشعوب كقيمة مركزية للشرط الإنساني.

فخارج هذا الطريق الذي يخصّ إنسانية حقيقية، تترافد حولها في وحدة التنوع ، أصوات الجنوب والشمال، لا مكان إلا لتجريدات مخاتلة، ولنكوصات مستديمة وغير محتملة، أكيدة العقم، وانتحارية خطيرة للإنسانية جمعاء.

لقد بدا لي للوهلة الأولى، أنه من واجبي كمجاهد ضد الاستدمار، وكمناضل سياسي وعسكري، في مسيرة التحرر الوطني لبلادي، أن أردّ على هذا العمى الفكري، المغرور والفظ وغير اللائق، الذي يعيث فساداً على الضفة الأخرى للمتوسط، بعد نصف قرن من اندحار الاستعمارية الفرنسية ، خاصة من خلال المبادرة بإعادة نشر الأعمال الأساسية للفكر السياسي الجزائري ما بين 1830 - 1962.

فكل من هذه الأعمال : بدءا بـ (المرآة) لحمدان خوجة ، وحتى النصوص التي تزودنا بالرواشد عن حرب تحريرنا الوطني، مرورا بكتابات الأمير عبد القادر، وسي محمد بن رحال، والأمير خالد، والشيخ عبد الحميد بن باديس، و فرحات عباس ومصالي حاج .. إنما تمثل، حقيقة، اتهاماً يستند إلى براهين دامغة عن طبيعة الاستدمار في بلادنا: كمشروع للتخلف ودحر المدنية، مترافقاً بالمقابل مع موكب طويل من أبشع الجرائم ضد الانسانية.

وبعد أن سرت بمشروعي حتى نهايته ، بدت لي خطتي هذه ، مفيدة بل خلاصية، إلا أنها في الحقيقة جزئية وغير كافية . فمن الواضح أنني لم أنهض بعد بشكل كامل ، بواجباتي الفكرية، كمناضل معاد للاستدمار، بكل ما تعنيه الكلمة تجاه التضامن العالمي الحار والحاسم.

حتى إذا كان الدور الذي نهض به الشعب الجزائري في الانتصار على الاستدمار، نموذجياً، في بعض الاعتبارات ، بيد أن معركته تمثل وجهاً ولحظة من سيرورة عالمية شاركت بها شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا ، بمؤازرة هامة من جانب قسط من شعوب ومثقفي أوروبا.

لهذين السببين، بدا لي ضرورياً دعم الأصوات الجزائرية المناهضة للاستعمار بأصوات أخرى، تتلاقى - مع ما لكل منها من تميّز- في التأكيد القوي لخاصيّة القتل في الاستدمار الذي يمثل نزع مدنية أبناء المستعمرات وتراجع مدنية المستعمرين ذاتهم.

إن التذكير بأصوات الأمس ليس دعوة لاجترار الماضي أو المراوحة في ماض - حاضر مهجور، إنما هو دعوة للاستماع - خارج إطار ضجيج وسخط الأمس الذي ما زال صداه يجرح اليوميات القلقة لعالمنا - إلى وقع ارتداد المستقبل والقدوم الممكن لعالم متعدد الأقطاب ، مع انبعاث الأمل في إنسانية متضامنة.

من المؤكد أن إيميه سيزير Aimé Césaire هو واحد من أكبر الشعراء المناهضين للاستعمار. لقد انطبع قدره كرجل ، منذ عدة قرون، بزمن العولمة الأولى، زمن " مثلث التجارة وعهد تجارة الرقيق " التي اقتلعت من أفريقيا مئات ملايين الرجال والنساء، الذين بعثرهم السادة البيض في الزوايا الأربعة من أمريكا الشاسعة، لتعويض

الشعوب الهندية التي أتت عليها المذابح والأمراض والأعمال الشاقة. لقد حطت عائلته في المارتينيك. وولد إيميه في زمن العولمة الثانية على أرض هذه الجزيرة التي أصبحت واحدة من (كونفيتي) إمبراطورية فرنسا الاستدمارية.

يحمل إميه سيزير الذاكرة الأليمة لشعبه، التي جعل منها سلاح معركة لتحرير كل شعوب الكوكب من الطغيان الكولونيالي المتعدد الأشكال.

«سيكون فمي فم المآسي التي لا فم لها. وصوتي حرية هؤلاء الذين يتهاوون في زنزانة اليأس» هذا ما يصرخ به في ديوانه «دفتر الرجوع إلى الوطن الأصلي».

في بداية الخمسينات، كان إيميه في المواقع الأمامية من الهجوم العالمي الكبير للشعوب المستعمرة، يقبض على ريشة الشاعر بكلماته المبطنة بالأمواج والحمم في وجه هواة الكلمة، وبهجائيتـه ذات العبارة القاطعة الواضحة الصريحة الجذرية، بالمعنى الأدبي للكلمة، أي بتركيزه على الجوهري وتناول القضايا من جذورها.

في مقاله هذا«خطاب حول الاستدمار» عام 1953، دوّى صوته متساوقا مع مدفعية (الجنرال جياب) الذي تأهّب ليوقع بالاستعمارية الفرنسية أول هزيمة استراتيجية.

قد يشعر القارئ اليوم ، ببعض الحرج أمام استعارات / إيميه / من المفردات الشيوعية المنمقة . لكن عليه أن يعرف مع ذلك ، أن مثل هذه الاستعارات شكّلت صيغة عبور إجباري لعدد من المناضلين المناهضين للكولونيالية، الذين رسموا، في غالب الأحيان، مسافاتهم

لاحقاً، على غرار إيميه سيزير ذاته الذي قطع مع الحزب الشيوعي الفرنسي عام 1956.

لا تكمن هنا أهمية الأمر. فالمهم أن إيميه سيزير يطرح المعادلة الجوهرية : استدمار= قبر المدنية، ويخلص بكل النتائج الماضية والحاضرة والقادمة على صعيد أبناء المستعمرات كما المستعمرين ذاتهم.

والمهم أيضا، يكمن في واقع أن (خطاب حول الاستدمار) ، هو واحد من الاتهامات الفاضحة الأكثر حذاقةً والأعمق تأثيراً والأوسع شموليةً والأكثر تركيباً للاستدمار. وليس هذا فقط ، فحسب ، بل هو أيضاً، إضافةً إلى صرامة عباراته المسنونة التي تشطر غلاظة المستدمر، نشيد بزوغ عولمة ثالثة، سعيدة هذه. حيث يدعو جميع شعوب المعمورة، وبالخصوص شعوب أفريقيا، هذه القارة التي سيحسن التعبير لاحقاً في ديوانه (أغلال) وبدقّة مدهشة عن طبيعتها المتفرّدة في العالم : «إني أرى أفريقيا المتنوعة بكل انتفاخاتها ونتوءاتها و شاقول انقلابها العاصف، مهمّشة بعض الشيء، لكنها في متناول القرن، مثل قلب احتياطي» .

إن القراءة اليوم ، على طرفي المتوسط كما على طرفي الأطلسي لكتابه (خطاب حول الاستدمار) هي بالتأكيد احتراز ضد الإثارات التوهّمية لماض قبيح، وهي أيضاً مساهمة ناشطة، في الأمل الذي تحمله إنسانية قائمة على تعددية الأقطاب الحضارية، متضامنة ومساهمة عضوياً في بناء (الحضارة) الإنسانية.

عبد العزيز بوتفليقة

«الاستدمار، عار القرن العشرين »

جاك دوكلو J. Duclos

المدنية التي تظهر عاجزة عن حل المشاكل التي يثيرها أداء وظيفتها هي مدينة زائلة.

المدنية التي تختار إغماض العيون عن مشاكلها الأكثر حساسية هي مدينة محتضرة.

الواقع أن الحضارة المسماة «أوروبية» «أي الحضارة الغربية» كما صاغها قرنان من النظام البرجوازي، عاجزة عن إيجاد حل للمشكلتين الأساسيتين النابعتين من وجودها : قضية البروليتاريا وقضية الاستدمار. وأن أوروبا هذه الماثلة أمام محكمة «العقل» و محكمة «الضمير» لا تستطيع أن تبرأ ذاتها. وهاهي تلجأ أكثر فأكثر إلى نفاق وقح ، تراجعت حظوظ خداعه.

لا مجال للدفاع عن أوروبا.

هذه هي المشاهدة التي يفضي بها الاستراتيجيون الأمريكيون ، بصوت خافت على ما يبدو.

وهذا الأمر ليس خطيراً بحد ذاته.

إنما الخطير في الأمر هو أنه لا مجال للدفاع عن أوروبا على الصعيدين الأخلاقي والمعنوي.

حيث نجد اليوم أنّ الجماهير الأوروبية ليست وحدها من يتهم، بل أنّ فعل الاتهام يتلفظ به على الصعيد العالمي عشرات وعشرات ملايين الرجال المنتصبين من عمق العبودية كقضاة لها.

من الممكن القتل في الهند الصينية، والتعذيب في مدغشقر، والاعتقال في أفريقيا السوداء، والبطش في جزر (أنتييه Antilles)، بيد أنّ أبناء المستعمرات أصبحوا يدركون امتلاكهم لميزة على هؤلاء المستعمرين. فهم يعرفون أن «أسيادهم» المؤقتين يكذبون.

وبالتالي فإن أسيادهم ضعفاء.

وبما أنه قد طلب مني أن أتحدث اليوم عن الإستدمار وعن المدنية ، فلنتوجّه مباشرة إلى الكذبة الأساس التي تتفرع عنها الأخريات.

استدمار، وحضارة ؟

إن الشؤوم الأكثر ابتذالاً بهذا الخصوص أن نكون مخدوعين، عن حسن نية، بذاك النفاق الجماعي الماهر في إساءة طرح القضايا ، بغية توفير أفضل التبريرات للحلول البغيضة المقدمة.

وهذا يعيدنا للقول إن الجوهري هنا ، هو أن نرى بوضوح ونفكر بصفاء ونجيب بصراحة على السؤال الأولي البريء : ما هو الاستدمار من حيث مبدئه؟ وأن نتفق

إذاً على ما ليس هو البتة: فهو ليس تبشيراً وليس مشروعاً إنسانياً، أو إرادة قهقرة حدود الجهل والمرض والقهر. والإستدمار أيضاً ليس توسيع الفضاء الإلهي ، أو توسيع دائرة الحق. كما علينا أن نقبل مرّة وإلى الأبد ،دون إرادة الرد على النتائج، أن الميل الحاسم يكون هنا: من جانب المغامر والقرصان، من العطار الكبير ومجهّز السفن.. من أصحاب شهوة القوة وخلفها الظل المشؤوم ، بما يدفع بالمدنية – في لحظة من تاريخها – إلى أن تجد ذاتها مضطرة – وبآلية داخلية، إلى توسيع التنافس بين اقتصادياتها المتنافرة على الصعيد العالمي.

إني أجد ، وأنا أتابع تحليلي ، أنّ سلوك النفاق يعود لتاريخ حديث. وأنّ كورتيز Cortez مكتشف مكسيكو من آعالي تيوكالي الكبير ,Téocalli و بيزار Pizzare أمام كوزكو Cuzco (وأقل أيضا ماركو بولو أمام كامبلوك Cambuluc) لا يحتجّون على دورهم كطلائع لنظام أعلى. حيث يقتلون، وينهبون، ويمثلون خوذات ورماحاً وأطماعاً كما أنّ المتعبين قد وصلوا فيما بعد. وأنّ التبجح المسيحي هو المسؤول الكبير في هذا المجال، لأنه طرح المعادلات غير النزيهة :

المسيحية = المدنية، والوثنية = الوحشية ، بالنتائج العنصرية والكولونيالية الشنيعة والحتمية و بالضحايا التي لا بد أن يكونوا هنوداً أو صفراً أو زنوجاً .

مع ذلك وبعده ، فإنّي أدرك : أنّ وضع حضارات مختلفة على احتكاك فيما بينها لأمر جديد، وأن مزاوجة عوالم متباينة لأمر رائع. وأن أيّ مدنية مهما كانت عبقريتها

الداخلية لا بد أن تصاب بالضعف إذا ما انكفأت على ذاتها. فالتفاعل هنا هو أشبه بالأوكسيجين. . وأنه من حسن حظ أوروبا أنّها شكّلت نقطة تقاطع عالمية، وشغلت الموقع الهندسي لجميع الأفكار، وإناء جميع الفلسفات وبساط الاستقبال لمختلف المشاعر، مما جعل منها أفضل موزّع للحيوية.

بالمقابل، لا بد من أن أطرح السؤال الآتي: هل أمّن الاستدمار حقاً عملية الاحتكاك ؟ أو إذا ما رجّحنا القول ، هل كانت طريقته في إقامة الاحتكاك هي الأفضل؟

إني أجيب بالنفي.

وأقول إنّ المسافة بين الإستدمار والحضارة مسافة لا متناهية.

حيث لم نوفّق في تحقيق، ولو قيمة إنسانية واحدة، من جميع الحملات الاستعمارية المتراكمة، ومن جميع الأنظمة الكولونيالية القائمة، ومن كل الأوامر الوزراية المرسلة.

علينـا بداية، دراسة كيف يعمل الاستدمار على (نزع حضارة) الأرض المستدمرة، وعلى إشاعة خبله بأتمّ المعنى، وتكسيره، وإيقاظ غرائزه المكبوتة، وإثارة الجشع والعنف والحقد العنصري ونسبية الأخلاق ،.. وعلينا إظهار أنه، في كل مرة يقطع رأس وتقلع عين في فيتنام، وتغتصب فتاة صغيرة وينكّل بملغاشي، إنما نتقبله في فرنسا كمكسب للحضارة التي تلقي بوزنها الميت، مع تخلّف كوني يشقّ طريقه، وتآكل يترسّخ، وموطن وباء يتمدد.

وأنه في نهاية كل هذه الاتفاقات المخترقة والأكاذيب المنتشرة والحملات العقابية المألوفة، وكل هؤلاء السجناء المقيدين المستنطقين، وجميع أولئك الوطنيين المعذبين ..كما في طرف هذا الغرور العنصري موضع التشجيع والغطرسة المنشورة، إنما هناك سمّ يقطر في عروق أوروبا وفي التطور البطيء لكنه الأكيد، (التوحش القارة).

هكذا، ذات يوم تستفيق القارة على صدمة ارتدادية مخيفة: حيث ينشط الغيستابو وتحشر السجون ويبدع الجلادون وهم يشذبّون أدواتهم ويتمارحون حولها.

ها نحن نعجب ونسخط. وهناك من يقول: «كم الأمر غريب! ولكن مع ذلك ما هي سوى نازية، سوف نتجاوزها!». وها نحن ننتظر ونأمل. ونخفي الحقيقة عن ذواتنا، حقيقة أننا أمام بربرية. سيّما أنّها بربرية عليا، تتوّج وتختصر يوميات كل البربريات. أن يكون هذا المعاش نازية، نعم .. لكن قبل أن نكون ضحيتها كنا الشريك. تحملناها قبل أن نعاني منها. عذرناها وأغمضنا العيون عنها، أقرّيناها طالما أنها كانت تطبق على شعوب غير أوروبية. هذه النازية، هي التي حرثناها وهي من مسؤولياتنا، تصمّ وتثقب وتقطر قبل أن تزدرد في مياهها المخضّبة بكل تشققّات الحضارة الغربية والمسيحية.

نعم، يتوجب توفير الجهد لدراسة سريرية (طبيّة) مفصلة لمسيرة هتلر والهتلرية ... وللكشف عن (كل متميز جداً، وإنساني جداً ومسيحي جداً..) عن برجوازي القرن العشرين، الذي يحمل في داخله هتلراً يجهله ويسكنه، هتلر يمثل «إبليسه» الذيً، إذا ما أنبّه فلقصور في المنطق . حيث أنّ الذي لا يغفر لهتلر في

الحقيقة : ليس الجريمة بحد ذاتها «كجريمة ضد الإنسان»، وليس إهانة الإنسان بحد ذاتها، إنما هي «جريمته ضد الرجل الأبيض» وإهانته للرجل الأبيض، وتطبيقه على أوروبا للآليات الاستدمارية التي كانت تخص حتى حينه ،عرب الجزائر، ومستعمرات الهند وزنوج أفريقيا.

إن المأخذ الكبير الذي أسجله على الإنسانية المزيفة، هنا، هو التقزيم الطويل لحقوق الإنسان، والاحتفاظ حتى الآن بمفهوم ضيق ومجتزأ منحاز، بل وفي الواقع عنصري بكل قذارته.

لقد تكلمت كثيراً عن هتلر. إنّه يستحق ذلك : فهو يسمح بالرؤية الواضحة وبإدراك عجز المجتمع الرأسمالي في مرحلته الراهنة عن تأسيس حق الجماعات، كما عن تأسيس أخلاقية الفرد.

وسواء شئنا أم لا، فإن هتلر يوجد في انسداد أوروبا، أقصد أوروبا (إيزنهاور) وشومان وبيدو (Bidault) وبعض الآخرين. كما يوجد أيضاً في طرف الرأسمالية الراغبة في استدامة ذاتها. وفي طرف الإنسانية الصورية والعزوف الفلسفي.

هكـذا ، تفرض إحدى جمله ذاتها عليّ:

«إننا نصبو، ليس إلى المساواة بل إلى الهيمنة، إنّ على بلاد الأعراق الأجنبية أن تصبح بلاد الرقيق ، والمياومين الزراعيين أو العمال الصناعيين. فالأمر لا يتعلق بإلغاء الفروقات بين الرجال، بل بتضخيمها وتحويلها إلى قانون.»

إن ذلك يدوي بوضوح، فظاظة وتعال ، ويضعنا في قلب التوحّش الصارخ. لكن لنهبط درجة.

من يتكلم ؟ إني أخجل من القول، إنه (الإنساني) الغربي ، الفيلسوف (المثالي). أن يدعى رونان (Ronan) فهي صدفة . وأن يستخرج النص من كتاب عنوانه (الإصلاح الفكري والأخلاقي) الذي كتب في فرنسا بعد حرب أرادت فرنسا أن تخوضها بحق ضد القوة .. فإن هذا يفصح عن الكثير من الأخلاقيات البرجوازية.

«إن إعادة توليد الأعراق السفلى أو المنحطة من قبل الأعراق العليا ،تقع في صلب النظام الرباني للإنسانية. وإن رجل (الشعب) عندنا هو دائماً تقريباً نبيل هبط في مستواه . تصلح يده الثقيلة لملاعبة السيف بدل أداة الرقيق. و يفضّل القتال بدل العمل ، فهو يعود إلى حالته الأولى.

صبّوا إذا هذا النشاط الذي ينهشه على بلدان - كالصين - تستدعي الفتح الخارجي. إجعلوا من المغامرين المشوشين في أوروبا جمهرة من مثل هؤلاء النورماديين أو اللومبارديين أو الفرانك الجرمانيين، فلسوف يحتلّ كل موقعه. لقد فرزت الطبيعة عرقاً من العمال كعرق الصينين بمهارة يد رائعة دون أدنى شعور بالعزة. وإذا ما حكمتموه بعدالة، مع حق اقتطاع صداق هام لصالح العرق الغازي مقابل هذا الحكم ، فإنه سيكون راض عن مصيره.

إن العرق المخصّص لخدمة الأرض إنما هو العرق الأسود. وإذا ما كنت معه طيباً وإنسانياً، فإن كل شيء سيكون على ما يرام.

أما عرق السادة والجند فهو العرق الأوروبي. إذا ما اختزلتم هذا العرق النبيل إلى خدمة سراديب الأرقاء كالعبيد أو الصينيين، فإنه سيتمرد. وكل متمرد عندنا إنما

هو جندي جانب أهليته، أو كائن مهيأ للحياة البطولية، نفرض عليه مهمة متعارضة مع عرقه، حيث سيكون عاملاً سيئاً بدل جندي في غاية الجدوى. في حين أن شروط الحياة التي تدعو عمالنا للتمرد ستجعل صينياً أو فلاحاً أناساً سعداء ، فهم ليسوا أبدا بجنود.

ليسلك كل الطريق الذي وجد من أجله ، ولسوف يسير كل شيء على ما يرام ".

هيتلر ؟ روزانمبرغ ؟ كلا. رينان Renan (كاتب ومؤرخ فرنسي - القرن التاسع عشر).

لننزل درجة أيضاً مع السياسي المهذار. فمن يحتجّ ؟ لا أحد حسب علمي، حين يخطب السيد ألبير سارّو Albert Sarraut في طلبة المدرسة الاستعمارية ، ليعلّمهم أنه من السخافة مواجهة المؤسسات الاستعمارية الأوروبية «بتهمة مزعومة للاحتلال ، إذ لا أدري أي حق آخر لعزلة نفورة تؤدي إلى إدامة ملكية عقيمة، لثروات دون استغلال ، بين أياد عاجزة».

ومن يغضب لسماع من يدعى ر.ب. بارد R.P. Barde الذي يؤكد أن خيرات هذا العالم «لو بقيت موزعة أبداً كما هي الحال دون الاستعمار ، فإنها لن تستجيب: لا إلى مقاصد الله ولا إلى المستلزمات العادلة للتجمّع البشري».

حيث أن زميلاً له في المسيحية ر.ب ميلر R.P.Muller، يؤكد " أنه ليس من واجب البشرية، كما ليس باستطاعتها أن تعاني من قصور وإهمال وخمول الشعوب المتوحشة التي تترك دون استغلال وإلى ما لا نهاية الثروات التي حباها الله إياها، مع مهمة خدمتها لصالح الجميع. »

لا أحـــــد ..

أقصد : " لا كاتباً ممتهناً ، ولا أكاديمياً، أو مبشّراً أو سياسيا، ولا صليبيا شرعيا ودينيا، أو «مدافعا عن الشخصية الإنسانية».

ومع ذلك فمن يسمع هؤلاء من أمثال سارّو Sarraut وبارد (Barde) وميلر (Muller) ورنان (Renan)، وبلسان كل هؤلاء الذين كانوا يعتقدون وما زالوا بمشروعية تطبيق »حالة من انتزاع الملكية لصالح المصلحة العامة " على ممتلكات الشعوب غير الأوروبية، ولفائدة الشعوب الأقوى والأكثر تجهيزا، إنما هو يسمع حديث هتلر بالأمس !

ما أريد قوله في النهاية ؟ إنه تسجيل هذه الفكرة : أن أحداً لا يستدمر ببراءة . وأحداً أيضاً لا يستدمر دون عاقبة.

وأن أمة تستدمر الآخر أو حضارة تبرر الاستدمار – أي القوة – إنما هي حضارة مريضة أصلاً . حضارة مصابة في أخلاقها، ولسوف تستدعي حتما في مسيرتها ، من نتيجة إلى أخرى، ومن جحود إلى آخر، هتلرها الخاص، أي عقابها.

الاستدمار : إنما هو رأس جسر في حضارة بربرية، حيث له أن يفضي في أية لحظة إلى نفي الحضارة بكل بساطة ووضوح.

لقد أخذت من تاريخ الحملات الاستدمارية، بعض الملامح التي ذكرت دون أدنى استعجال.

غير أن هذا لم يعجب الجميع، حيث يبدو وكأنها سحبت من هياكل الخزانة العتيقة ! لنـــرى :

هل من غير المفيد، ذكر الكولونيل دو مونتانيه de Montagne أحد فاتحي الجزائر، حيث يكتب «كي أطرد بعض الأفكار التي تقيدني أحياناً، فإنّي أقوم بقطع الرؤوس، ليس رؤوس الأرضي - شوكي بل رؤوس الرجال».

هل من المناسب رفض كلام الكونت هريسون (d'herisson) : «صحيح أننا نجمع برميلاً عامراً بالآذان المحصودة، أزواجاً، أزواجاً من السجناء ، أصدقاء وأعداء».

هل يجب أن نرفض لـ سان أرنو (Saint -Arnaud) حقه في ممارسة عقيدته البربرية: «ننهب، نحرق، نسلب، نحطّم الحجر والشجر».

هل يجب منع المارشال بيجو (Bugeaud) من أن يقول كل هذا في نظرية وقحة، وأن ينسب ذاته إلى الأجداد: «يتوجب القيام بغزوة كبيرة لأفريقيا، تكون شبيهة بما كان يفعله الفرانك (Francs) وما كان يمارسه الغوث (Goths)».

هل يجب أخيرا أن نلقي في غياهب النسيان الفعلة العسكرية الخالدة للرائد جيرار (Gérard) وأن نصمت عن الاستيلاء على مدينة أمبيك (Ambike)، تلك المدينة التي لم تكن تحلم أصلا بالدفاع عن ذاتها.

«لقد كانت الأوامر للرماة أن يقتلوا الرجال فقط. إلا أنهم ما كانوا ليتوقفوا. حيث لم يكونوا ليوفروا إمرأة أو طفلاً وهم سكارى من رائحة الدم .. في نهاية بعد الظهيرة، وتحت فعل الحرارة، ارتفع ضباب خفيف من دم خمسة آلاف ضحية و تبخّر ظل مدينة تحت أشعة الشمس الغاربة».

هل حقيقية هذه الأفعال أم لا ؟ إن المتعة السادية والنشوى التي لا تحصى لـ (لوتي Loti) تهزّ عظامكم، حين يقود من طرف منظاره كضابط، مذبحة رهيبة للأناميين (الفيتناميين) ؟

حقيقية أم لا ؟[1]

لكن، ماذا لو كانت هذه المذابح حقيقية، حيث ليس بمقدور أحد نكرانها. ربما يقول قائل، لتخفيف حجم الجرائم، إنّ هذه الجثث لا تفصح عن شيء ؟

إن تذكيري ببعض تفاصيل هذه المذابح الرهيبة، فيما يعنيني ليس قط من باب التلذذ السوداوي، إنما لاعتقادي أن رؤوس الرجال هذه، وقطف الآذان، والبيوت المحروقة، والغزوات (الغوتية) ودخان الدماء، والمدن التي تتبخر على حد السيوف، لا يمكن التخلص منها بسهولة. فهي تعني - كما أكرّر - أن الإستدمار ينزع إنسانية الإنسان، حتى الأكثر تحضّراً، وأن العملية الاستدمارية والمشروع الاستدماري، والفتح الاستدماري إنما تتأسس على الاحتقار وتتجه «حكماً» إلى تغيير صاحبها. كما أن المستعمر يتعوّد - قصد إراحة ضميره - على رؤية الآخر كحيوان، ويتدرب على معاملته هكذا، بل ويتجه موضوعياً نحو تحوّله - ذاته - إلى حيوان.

---

(1) - يتعلق الأمر بسرد قصة الاستيلاء على توان -آن (Thouan -An) الذي نشر في الفيغارو، سبتمبر 1883، وذكر في كتاب ب. ن سربان N.Serban/ لوتي، حياته وانجازه / .

لقد بدأت المجزرة الكبرى. كانت النيران تنطلق رشاً كم هي ممتعة رؤية حزم الرصاص الموجه ، تمطرهم بكل سهولة مرتين في الدقيقة، تحت قيادة منهجية وواثقة ....

كنا نشاهد منهم مجانين حقيقيين ينهضون من دوار الجري .. يتمايلون في السباق مع الموت وينحنون حتى خصرهم بطريقة مضحكة .. ثم كنا نتسلى بعدّ الموتى .. الخ .. الخ ».

ومن المهم بالضبط الإشارة إلى هذه العملية .. إلى ارتداد الصدمة الاستدمارية.

هل هذا انحياز ؟ كلا. فلقد كان هناك وقت، يتباهى فيه البعض بهذه الأفعال بل لا يمضغ البعض كلماته، ثقة بالغد.

استذكار أخير، أستعيره من كارل سيجر Carl Siger، مؤلف كتاب «محاولة حول الاستدمار» (1):

«تمثل البلدان الجديدة حقلاً واسعاً مفتوحاً للنشاطات الفردية، العنيفة، التي يمكنها أن تصطدم في المتروبول ببعض الأحكام وبفهم حكيم ومنظم للحياة. إلا أنها تستطيع أن تنمو بحرية أكبر في المستعمرات وتؤكّد قيمها لاحقاً. هكذا يمكن للمستعمرات أن تخدم - إلى حد ما - كصمام أمان للمجتمع الحديث. هل هذه المنفعة هي الوحيدة، كم هي هائلة بذاتها.

في الحقيقة، هناك نقائص ليس بمقدور أحد تصحيحها كما لن ننتهي من التكفير فيها.

فلنتكلم الآن عن أبناء المستعمرات.

إني أرى جيداً ما قام الاستدمار بتحطيمه: الحضارات الهندية الرائعة. وليس لديتردينغ Deterding أو رويال دوتش Royal Deutch أو ستاندار ويل oil Standard أن يعزونني يوماً عن الأزتيك Atzhèques أو الإينكا (Incas).

---

(1) - كارل سيجر، محاولة حول الاستدمار، باريس، 1907.

إني أرى تلك المستعمرات - المحكوم عليها - والتي أدخل إليها الاستعمار مبدأ الخراب: أوسياني - نيجيريا - نيسلاند. إلا أني لا اشهد جيداً ما قدمه لها.

الأمن ؟ الثقافة ؟ التشريع؟

وبالانتظار، أنظر وأرى في كل مكان حيث يتقابل المستدمر وأبناء المستعمرات: القوة والعنف والصلف والساديّة والصدام.

كما ألحظ على صعيد التكوين الثقافي، التأهيل المتعجل لبضعة آلاف من الموظفين التابعين والخدم الحرفيين ومستخدمي التجارة والمترجمين الضروريين لحسن سير الأعمال.

تكلمت عن التفاعل ..

لا يوجد بين المستدمر وأبناء المستعمرات سوى الاستغلال والإهانة والضغوط والشرطة والضرائب والسرقة والاغتصاب والثقافات الإجبارية، والازدراء، والشك، والكفاية، والجلافة والنخب المنزوعة التفكير، والجماعات المحتقرة.

ليس هناك من تفاعل إنساني، إنما علاقات السيطرة والخضوع التي تحولّ أبناء المستدمرات إلى : بيدق، أو عريف، أو حارس، ومحكوم بالأشغال الشاقة أو مصيدة .. كما تحولّهم إلى أدوات إنتاج.

بدوري أطرح المعادلة: **استدمار = تشييء**

إني أسمع العاصفة، سوف يحدثونني عن التقدم والانجازات والأمراض التي تم القضاء عليها ومستويات الحياة التي ارتفعت بما يتجاوزهم.

بيد أنّي شخصياً، أتكلم عن مجتمعات أفرغت من ذاتها، عن ثقافات تراوح ، عن مؤسسات ملغومة، عن أراض محجوزة، عن ديانات شهيدة ،عن إبداعات فنية قضي عليها وإمكانات هائلة أبيدت.

هم يقذفون رأسي بالوقائع والإحصائيات وطول الطرق المفتوحة والقنوات وسكك الحديد . . .

في حين أنّي أتكلم شخصياً عن آلاف الرجال الذين ذبحوا في الكونغو (Ocean-Congo) .. أتحدث عن هؤلاء الذين يحفرون بأيديهم - في هذه اللحظة - مرفأ أبيدجان ..وعن ملايين الرجال الذين اختطفوا من آلهتهم واقتلعوا من أرضهم وعاداتهم وحياتهم: حياة الحرية والرقص والحكمة.

أتحدث عن ملايين البشر الذين زرعوا بهم - عن سابق دارية - الخوف وعقد النقص والارتجاف والركوع واليأس والعبودية.

يشبعون ناظري بحمولات القطن أو الكاكاو المصدرة ويهكتارات الزيتون أو الكرمة المزروعة.

في حين أنني أتحدث عن الاقتصاديات الطبيعية ،الاقتصاديات المنسجمة والقابلة للحياة. اقتصاديات على مقاس الرجل الأصلي المفتقر للنظام. أتحدث عن الزراعات القوتية التي دمرت ، و عن نقص التغذية القائم، والتطور الزراعي الموجه حالياً نحو خدمة المتروبول، وعن سلب الإنتاج ونهب المواد الأولية.

إنهم يتباهون بإلغاء بعض التعسّفات !

أنا أيضاً، أتحدث عن التجاوزات. لأقول كم راكبوا فوق التعديات القديمة الأكيدة – تعديات أخرى جد حقيرة.

يحدثونني عن المستبدين المحليين الذين دجّنوا . إلا أنني ألاحظ بشكل عام، أنهم يتعايشون بتوافق جيد مع المستبدين الجدد، وأن هناك دارة حقيقية من التواطؤ والخدمات المتبادلة فيما بينهم ، باتجاه أوبآخر.

يحدثونني عن التمدين. وأنا أتحدث عن الإفقار والخداع.

من طرفي، **أدافع منهجياً عن الحضارات غير الأوروبية.**

فكل يوم يمر، وكل نكران للعدالة، كل تنكيل بوليسي، كل مطالب عمّالية غارقة في الدماء، كل فضيحة تغطى، كل حملة عقابية، كل حافلة لوحدات القمع، كل شرطي و عنصر ميليشيا. . كل هذا يجعلنا نقدر قيمة مجتمعاتنا القديمة.

لقد كانت مجتمعات جماعية السلوك. حيث لا يعيش الجميع أبداً من أجل البعض.

لم تكن مجتمعات ما قبل الرأسمالية كما يقال، بل ضد – رأسمالية أيضاً.

لقد كانت مجتمعات ديمقراطية، دائماً.

لقد كانت مجتمعات تعاونية، مجتمعات متآخية.

أدافع منهجيا عن المجتمعات التي حطمتها الأمبريالية.

لقد كان الواقع كما هو على طبيعة ولم يكن لديها أي إدعاء بأنها «الفكرة».

ولم تكن رغم نقائصها ، موضع حقد أو إدانة.

لقد كانت تكتفي بوجودها. ولم يكن هناك – أمامها – من معنى لكلمة نكسة أو لكلمة إنمساخ. لقد كانت تحتفظ بالأمل كاملا.

بدل بدل أن تكون هذه هي الكلمات الوحيدة التي يمكن – بكل شرف – تطبيقها على المشاريع الأوروبية خارج أوروبا. فإن عزائي الوحيد هو أن الاستعمار يمضي، وأن الأمم تغفو لوقت، وأن الشعوب تبقى.

مع ذلك ، يبدو في بعض الأوساط، أن هناك من يتكلف ليكتشف – بي – عدواً لأوروبا ونبي العودة إلى الماضي ما قبل الأوروبي.

إني أفتش عبثاً – فيما يخصني – أين اعتمدت هكذا خطاب ؟ وأين شوهدت كمن يختزل أهمية أوروبا في تاريخ الفكر البشري؟ أين سمعت داعياً إلى عودة ما إلى الماضي ؟ أو إدعائي أن مثل هكذا عودة ممكنة أصلاً.

الحقيقة أني قلت كلاماً آخر . وهو معرفة أن المأساة تاريخية لأفريقيا، وهي ولم تكن أكثر خطورة، بسبب الاحتكاك المتأخر جداً مع العالم الآخر، من الكيفية التي تمت بها عملية الانفتاح هذه . ومعرفة أن أوروبا في اللحظة التي وقعت فيها بين أيادي رجال المال وقبطان الصناعة الأكثر تجرداً من أي وازع، إنما " دشنت انتشارها". وأن تعاسة حظنا شاءت أن نصادف أوروبا هذه على طريقنا.

فأوروبا تعدّ أمام المجتمع البشري أكبر تكوّم من الجثث في التاريخ.

فضلا عن ذلك، كنت قد أضفت في تقييمي للعملية الاستدمارية، أن أوروبا تواءمت بقوة مع جميع الإقطاعيين المحليين الذين قبلوا خدمتها. وحاكت معهم

تواطؤاً خبيثاً. وجعلت فظاعتهم أكثر عملية وفعالية . بل إن فعلها لم ينزع إلى أقل من الإدامة الاصطناعية لأخطر ما يوجد في تلك المواضي المحلية.

لقد قلت – وهو أمر مختلف جداً – أن أوروبا طعّمت الظلم القديم بتعسف حديث. والعنصرية الوقحة باللامساواة العتيقة. وأنّه إذا أراد هؤلاء القيام بالحكم على نواياي، فإني أتمسك بأن أوروبا الاستدمارية تخادع بشرعنة – الفعل الاستدماري – بعد الاختبار، عبر التقدم المادي الواضح الذي تحقق في بعض الميادين في ظل النظام الاستعماري، نظراً لأن التبدل المفاجئ أمر ممكن في مجال التاريخ كما في الميادين الأخرى . فلا أحد يعرف مستوى التطور المادي الذي كان يمكن أن تصله هذه البلدان بالذات خارج التدخل الأوروبي. كما أن التجهيز التقني والتنظيم الإداري، وبكلمة واحدة (أَوْرَبَة) أفريقيا أو آسيا، لا يرتبط أبداً – وفق ما يثبته النموذج الياباني – بالاحتلال الأوروبي. فأوروبة القارات الأخرى يمكن لها أن تكون بكيفية أخرى غير الحذاء الأوروبي. وأن هذه العملية كانت جارية . بل لقد حدث لجمها، وفي كل الحالات، تشوهت من خلال تسلط أوروبا.

يبرهن على ذلك – راهناً – طلب الأهالي في أفريقيا وآسيا بناء المدارس، في حين أن أوروبا الاستدمارية ترفضه. هو ذا الرجل الأفريقي الذي يطلب شق الطرق وإقامة المرافئ بينما تضنّ أوروبا الاستدمارية. وهاهم أبناء المستعمرات يريدون الاندفاع إلى الأمام فيواجههم جهد المستدمر لشدّهم للخلف.

لنمضي أبعد من ذلك، فأنا لا أخفي تفكيري في اللحظة الراهنة أن بربرية أوروبا الغربية عالية بشكل غير معقول، لا يتجاوزها حقاً ومن بعيد سوى بربرية واحدة: البربرية الأمريكية.

ولست أتحدث عن هتلر، أو عن حارس سجون الأعمال الشاقة، وعن المغامر، بل عن «الرجل الفاضل» المقابل. كما لا أقصد وحدات القمع النازي أو عصابات الأشرار بل البرجوازي الشريف. لقد تأسف سابقاً ليون بلوا (Léon Bloy) بنقاوته، لتحميل المحتالين والدجالين والمزورين واللصوص والقوادين مهمّة «نقل نموذج الفضائل المسيحية، إلى بلاد الهند».

«التقدم» يتمثّل اليوم بذاك الحائز على «الفضائل المسيحية» الذي يسعى بحماس ونجاح لشرف إدارة ما وراء البحار وفق كيفيات المزورين والجلادين. ويثبت أن الكذب والسقوط والنساء والفظاعة إنما عضّت بشكل عجيب روح البرجوازية الأوروبية.

أكرر أني لا أتكلم عن هتلر ولا عن فرقه للتعذيب أو ذبح اليهود أو الإعدامات الميدانية. بل عن ذلك الرد - فعل المفاجئ وعن الانعكاس المقبول والازدراء المسموح . وإذا ما أردنا شواهد، لنا أن ننظر إلى مشهد هستيريا أكلة لحوم البشر، الذي توفر لي حضوره في المجلس الوطني الفرنسي.

عجباً منكم زملائي الأعزاء (كما يقال)، إني أنزع لكم قبعتي (قبعتي كآكل لحوم البشر، بالتأكيد).

فكروا إذن ! هناك تسعون ألف قتيل في مدغشقر.

الهند الصينية تراوح مسحوقة ذبيحة ضحية تعذيب منتشل من عمق القرون الوسطى. أي مشهد! إرتعاشة الحبور هذه التي تنعش نعاسكم! هذه الصرخات

الوحشية! بيدو (Bidault) بسحنته كضحية مضرّجة بأوساخها - آكل لحوم البشر المراوغ مع سانت نيتوش Sainte-Nitouche، تيتجن (Teitgen) الابن القاطن في شيطان، الجاهل منزوع المخ - آكل لحوم البشرلـ (Pandectes)، موتيه (Moutet) وآكل لحوم البشر المغشوش، والعبث الصاخب والزبدة التي تغطّي الرؤوس. كوست - فلوريه Cost-Floret، وعملية أكل لحوم البشر والدبّ السيء اللعق وأقدامه في الصحن.

ما لا يمكن نسيانه، أيها السادة، كيف، مع عبارات جميلة علنية وباردة كعصيبات ، يقيّد الملغاشي. وبكلمات مقبولة يتم طعنه. وفي وقت غسيل (الصفّارة) تنزع أحشاؤه. ياله من عمل رائع ! فلن تضيع قطرة دم واحدة.

هؤلاء الذين يجعلونه حمرة على أظافرهم دون أن يضعوا فيه الماء. هؤلاء الذين مثل رامادييه Ramadier يلوثون به وجههم على شاكلة سيلين (Silene) البشع. فونتلوب - إسبرادير Fontlup-esperader[1] الذي ينشي به شواربه - على طرز (gaulois) الغولوا العتيق ذي الرأس المستدير. ديجاردان Des jardins العجوز المنحني على فوحان الدّن ينتشي منه كخمرة عذبة.

العنف. عنف الضعفاء، أمر ذو معنى: فالحضارات لا تفسد من رأسها، بل يبدأ فسادها بالقلب.

---

(1) - لم يكن شيطاناً سيئاً في أعماقه، كما سيثبت لاحقاً، لكنه كان منفلتاً هذا اليوم.

إني أعترف من أجل حسن صحة أوروبا والحضارة بأن كلمات «اقتل ! اسحق! » وعبارات «يجب أن تسيل الدماء»، حين يتجشأها عجوز يرتجف وشاب من تلامذة (الآباء الطيبين)، إنما تطبعني قرفاً أكثر من أحاسيس سطو على باب بنك باريسي.

وليس هذا – كما ترون – سلوكا استثنائيا.

إنما القاعدة في هذه البرجوازية التي نقتفيها منذ قرن. نسمع خلجاتها، نفاجئها، نحسّ بها، نتبعها، نفقدها، نجدها، نسير وراءها وهي تتسع يوميا بغثيان أكبر.

أوه، إن عنصرية هؤلاء السادة لا تضايقني قط، و لا تحرك أسفي. فقط أدرك وجودها وأشهدها. هذا كل ما في الأمر.

حتى أني أكاد أقدّر جرأة التعبير عنها وظهورها في وضح النهار، إنها علامة.

علامة أن الطبقة التي استولت سابقاً على سجن الباستيه Bastille تقطع عرقوبها. علامة إحساسها بالموات، وبأنّها جثة هامدة. وعندما تدمدم الجثة، فإنها تحرك في الذوق ما يلي:

«كم كانت الحقيقة كبيرة منذ أول حملة للأوروبيين الذين رفضوا زمن كولومب، الاعتراف بشبههم بأولئك الرجال المصنفين دوناً ، سكان العالم الجديد ... لا يمكننا تفحّص نظراتهم المثبتة على ذاك المتوحش دون قراءة اللعنة المكتوبة، ليس فقط في روحهم ـ على ما أقول – بل وفي مورفولوجيا جسدهم».

إنه كلام جوزيف دو مستر «Joseph de Maistre». وهي "الصياغة المجازية".

وهو ما سوف يعطي ما يلي ، أيضاً :

«من وجهة النظر الانتقائية، فإني سأنظر بغضب إلى الازدياد الرقمي الكبير للعناصر الصفراء والسوداء التي يصعب التخلص منها. على كل حال، إذ ما كان لمجتمع الغد أن ينتظم على قاعدة الثنائية، مع طبقة البيض-الطوال كقائدة ، وطبقة العرق الدوني المحصور في اليد العاملة الأكثر عمومية، يمكن القول إنّ هذا الدور سيعود إلى تلك العناصر السوداء والصفراء. في هذه الحالة إذن لن تمثل هذه العناصر أي إزعاج بل مكسباً لصالح البيض الطوال ... ويجب ألاّ ننسى أن (العبودية) ليست أكثر غرابة من ترويض الحصان أو الثور. فمن الممكن - بالنتيجة - أن تعاود ظهورها في المستقبل بصيغة أو بأخرى، بل إنّ مثل هذا الأمر قد يحصل حكماً، إذا لم يتحقق الحل التبسيطي : عرق واحد علوي يرفعه الاصطفاء».

هذه هي الصياغة العلمية التي يوقعها السيد لابوج Lapouge ..

وهو ما سوف يؤدي مرة أخرى إلى ما يأتي، (وهذه هي الصياغة الأدبية):

«أعلم أنه عليّ أن أومن بتفوقي على فقراء، Bayas de la Mambéré وأدرك أنه عليّ الشعور بكبرياء دمي. فحين يتوقف الرجل المتفوق عن إيمانه بتفوقه، سيتوقف بالفعل عن كونه متفوقاً .. وعندما يتوقف عرق علوي عن إيمانه بأنه عرق مختار، فسوف يتوقف حكماً عن كونه عرقاً مختاراً».

وهذا من توقيع بسيشاري جندي أفريقيا Psichari -Soldat d'Afrique. وإذا ما ترجم الوضع باللغة الصحافية، فإننا نحصل من فاغيه Faguet :

«ينتمي البربري - بعد كل شيء - إلى ذات العرق الروماني واليوناني. إنه ابن العم. غير أن الأصفر والأسود ليسوا أبدا أبناء عمومتنا: هنا يوجد فرق كبير ، وهو مسافة واسعة وحقيقية من طبيعة إثنية. على كل حال، لم يحصل التمدّن أبداً ، حتى الآن ، إلاّ على أيادي البيض ... فإذا ما أصبحت أوروبا صفراء فإن تخلّفاً أكيداً ومرحلة جديدة من الظلامية والغموض ستفرض نفسها، أي عودة العصور الوسطى».

ومن ثمّ، فلننحدر أكثر فأكثر سفلية حتى قاع الحفرة، بل أكثر وطاوة مما يستطيعه الرفش، لنقرأ مع جيل رومان Jules Romains من الأكاديمية الفرنسية، ومجلة (العالمين)، (دون أن نتوقف بالطبع حول استبدال السيد فاريغول Farigoule لاسمه مرّة أخرى ليصبح سالست Salsette لسهولة النص).. المهم أن السيد جيل رومان يتوصلّ إلى كتابة ما يلي:

«لا أقبل الحوار إلا مع أناس يتوافقون على النظرية التالية: حين تضمّ فرنسا عشرة ملايين من السود، فإن 5 - 6 ملايين سيستغلّون واد الغارون. ألن يحرك أبداً الحكم المسبق على العرق، جماهيرنا اليقظة في المنطقة الجنوب - غربية؟ ألن يكون هناك قلق، إذا ما وضعت كل السلطات بين أيدي هؤلاء السود أبناء العبيد؟ .. لقد حدث و أن شاهدت ـ وجهاً لوجه ـ صفاً من عشرين أسوداً صاف وهم يعلكون .. ولست آخذ على عبيدنا وعبداتنا ذلك . إلا أنني سألاحظ فقط ... أن هذه العملية تهدف إلى إبراز الفكّين، وأن إثاراتها في نفسك ستنقلك إلى أقرب ما يمكن من الغابة

الاستوائية، وليس إلى أعياد آثينا ... لم يحدث أن أعطى العرق الأسود ولن يعطي يوماً واحداً أمثال : أنشتاين أو ستافنسكي Stavinsky أو جرشوين Gershwin. "

لنطرح مقارنة حمقاء تقابل هذه المقارنة الحمقاء : لطالما أن نبيّ مجلة " العالمين "، وأماكن أخرى يدعونا للمقاربات (المتباعدة) . فليسمح لهذا الزنجي الذي أكونه من أن أجد - وليس لأحد سلطة على ترابط الأفكار - أنّ علاقة صوته بالسنديان أو حتى بحطب دودون (Dodone) هي أقل من قربها من نهيق حمير ميسوري Missouri.

مرة أخرى، أكرر دفاعي المنهجي - فقط - عن الحضارة الزنجية القديمة: فلقد كانت حضارات ظريفة .

ربما هناك من يقول لي أن المشكلة الحقيقية هي في العودة لذلك.

كلاّ ، التي أكررها. فنحن لسنا رجال "إما هذا أو ذاك".

والقضية بالنسبة لنا ليست محاولة تكرار طوباوي وعقيم، إنما هي مسألة تجاوز . حيث لا نريد إحياء مجتمع ميت. إذ نترك ذلك لهواة طاردي الأرواح الشريرة، كما لا نريد أيضاً هذا المجتمع الاستدماري الراهن الذي يرغبون في استدامته، وهو أكثر رداءة من اللحم الذي يتفسخ تحت الشمس. بل نسعى لخلق مجتمع جديد بمساعدة إخوتنا العبيد، غنيّ بكل الطاقة الإنتاجية الحديثة، وحارّ بكل الأخوّة القديمة.

إن ذلك ممكن ، هذا هو الاتحاد السوفيتي يوفر لنا أمثلة فصيحة ...

لكن لنعود إلى السيد جيل رومان.

ليس باستطاعتنا أن نقول أن البرجوازي الصغير لم يقرأ شيئاً، بل على العكس، لقد قرأ كل شيء وهضم كل شيء.

فقط، نلاحظ أنّ مخه يعمل على طريقة بعض الأجهزة الهضمية، من النموذج البدائي . إنه يصفّي، ومصفاته لا تسمح بالرشح إلاّ لما يغذي جلد خنزير الضمير البرجوازي.

لقد كان الفيتناميون قبل وصول الفرنسيين إلى بلادهم أصحاب ثقافة قديمة مصقولة . هذا التذكير يضايق (بنك الهند - الصينية). عليكم أن تشغّلوا محرّك تناسيكم..

لقد كان هؤلاء الملغاش الذين نمارس تعذيبهم اليوم، قبل أقل من قرن شعراء وفنانين وإداريين ؟ صه ! لنغلق أفواهنا !

ويصبح الصمت عميقاً كصندوق مقفل! من حسن الحظ أنه قد بقي هناك زنوج آه! الزنوج!

لنتحدث عن الزنوج

حسناً، لنتحدث عنهم.

إمبراطوريات السودان - برونزات بنين- نحتيات شونغو Shongo ؟ حسناً، فلسوف يبدل لنا كل هذا ، كثيراً من مناظر اللفت الرائع الذي يزين عديد العواصم الأوروبية. وهناك أيضاً الموسيقى الأفريقية، لما لا؟

لننظر لما قاله وما شاهده المكتشفون الأوائل ... وليس لأولئك الذين يأكلون على معالف الأرياف! ونقدّر ما قاله أمثال :

بيكافتا Pigafetta ومارشيه Marchais ودالبي d'Elbee و من ثمّ من فروبينيوس Frobenius.

هاه، هل تعرفون من هو فروبينيوس! لنقرأ معاً :

«.. إنّهم مدنيون حتى نخاع عظامهم! وفكرة الزنجي البربري ليست سوى اختراع أوروبي»

البرجوازي الصغير لا يريد أن يسمع شيئاً.

فهو بنبضة أذن ، يطرد الفكرة.

الفكرة ،هذه الذبابة المزعجة.

إذاً، رفاق لك ، سيصبحون أعداءك - بكيفية عالية شفافّة وجدّية - ولن يقتصر الأمر قط ، على حكّام ساديين وولاة جلادين ، أو فقط ، على مستوطنين يسوطون أنفسهم و(بنكيين) شرهين .أو سياسيين يلحسون الصكوك، وقضاة مطيعين ...

بل وبالأسلوب ذاته وبالدرجة نفسها : صحافيون علقميون، وأكاديميون منتفخو العنق بحماقاتهم، ومتخصصون ميتافيزيقون بعلم السلالات، وعلماء لاهوت خياليون وغريبون ، ومثقفون ثرثارون خارجون بروائحهم من فخذ نيتشه ، أو هابطون من لا أدري أي رهط من المشاهير، وهناك أيضاً الأبويون ومدمنو العناق، والمفسدون، والطاعنون في الظهر وهواة السلع الأجنبية، المفرقّون، علماء الاجتماع في توزيع الأراضي، المخدرون، الغيبيون..والإتهاميون.

ويشكل عام ، كل هؤلاء الذين ـ وهم يلعبون دوراً في التقسيم القذر للعمل دفاعاً عن المجتمع الغربي والبرجوازي ـ يحاولون بطرق متعددة وتنوع خسيس، تفتيت

قوى التقدم – حتى ولو تطلّب الأمر نكران إمكانية التقدم ذاته. فهم جميعاً حوامل الرأسمالية . وجميعهم مناصر للاستدمار النهّاب. جميعهم مسؤول، جميعهم يستحقّ الحقد، جميعهم مراكب اقتلاع العبيد، جميعهم يعزز من الآن فصاعداً العدوانية الثورية.

لتكنس من أمامي كل الظلاميين، وكل مخترعي الذرائع، وكل الدجالين المشعوذين، ومتلاعبي الرطانة والإبهام.

ولا تحاول أن تعرف إذا كان هؤلاء السادة هم حسنو أو سيئو النية، لهم خلفيات قذرة أو طيبة، وإذا كانوا شخصياً – أي في أعماق ضميرهم –استدماريين أم لا، طالما أن الجوهري يتعلق بغياب أية علاقة بين صدفة حسن نيتهم الذاتي، وبين البعد الموضوعي والاجتماعي للمهمة السيئة الموكلة لكلاب حراسة الإستدمار.

ووفق اتساق ذات الأفكار، أذكر لكم ، على سبيل المثال (مختارات من علوم مختلفة):

– دوغورو (De Gourou)، وكتابه (البلدان الاستوائية)، حيث نجد أطروحته الجوهرية المنحازة وغير المقبولة ـ بين نظرات أخرى صائبة ـ تقول بالغياب التام لأية حضارة استوائية كبيرة، وبأن الحضارات الكبيرة لا توجد خارج المناخ المعتدل. بل أنّ بذرة الحضارة في كل بلد استوائي تأتي ، وليس بمقدورها أن تأتي أصلاً إلاّ من خارج المنطقة الاستوائية. كما أن البلدان الاستوائية تواجه خارج النقمة البيولوجية من العنصريين، نقمة جغرافية ليست أدنى فعالية ، ولاتقلّ أهمية ، كما تحمل النتائج نفسها .

- ومثل الأب المحترم تامبيل Tempels التبشيري والبلجيكي، بفلسفته البانتوية (نسبة إلى شعوب المنطقة الواصلة بين الكاميرون والصومال - المترجم) ، الغامضة والمقززة على هواه، والمكتشفة بطريقة جدّ حذقة - كما كان الحال مع الهندوسية من قبل آخرين - لتصنع مقلباً «للمادية الشيوعية» التي تهدد - على ما يبدو - بجعل الزنوج «متسولين أدبيين».

- ومن مؤرخي وروائيي التمدن، منهم جميعاً تقريباً وليس من هذا أو ذاك، بموضوعيتهم المزيفة، وعصبويتهم وعنصريتهم المنافقة، وحماسهم المعيب لنكران أي استحقاق عند الأعراق غير العرق الأبيض، وبشكل خاص للأعراق الملونة، وبهوسهم المتركزّ على فكرة احتكار كل مجد لهم.

- من النفسانيين والاجتماعيين ... الخ برؤاهم حول «البدائية»، وأبحاثهم الموجهة، وتعميماتهم المصلحية، و مضارباتهم المغرضة، وإلحاحهم على الصفة الهامشية، هامشية غير البيض، وجحودهم ـ لحاجات الموضوع - في الوقت ذاته الذي يدّعي كل منهم العقلانية الأكثر صلابة كي يتهم - و من فوق - عجز الفكرة البدائية، ونفيهم البربري لعبارة «ديكارت» التي تمثّل ميثاق العالمية، أنّ : «العقل ... يوجد بكامله في كل منّا» وأنه " لا وجود لما هو أكثر أو أقل قط بين أشكال وطبائع أفراد النوع الواحد، سوى في حالات الطوارئ ".

لكن، علينا ألاّ نتعجّل. فمن المفيد متابعة بعض هؤلاء السادة: لن أتوقف طويلا عند حالة المؤرخين أو مؤرخي الاستدمار، ولا عند المتخصصين بمصر. فحال الأوائل جدّ واضحة، وفي حالة الآخرين، فإنّ شيخ أنتا ديوب Anta Diop

Cheikh فكّك نهائيا آلية مخاتلتهم في كتابه «أمم زنجية وثقافة» بأجرأ ما نعرف حتى الآن من كتابات زنجي لا يشك أبداً في يقظة أفريقيا[1]

لنعود – على الأرجح – للوراء، للسيد غورو Gourou بالذات.

هل أحتاج للتذكير أن العالم الشهير ينظر من الأعالي ، وبازدراء ، إلى جماعات "الأهالي"، تلك التي «لم تسهم أبداً » في تطوير العلم الحديث؟ وأنه لا ينتظر خلاص البلدان الاستوائية بجهد تلك الجماعات وبنضالها التحرري ومعركتها الملموسة من أجل الحياة والحرية والثقافة، بل ينتظره من مستعمريها، حيث أن القانون حاسم حول «أن العناصر الثقافية المعدّة في المناطق غير الاستوائية هي ما تضمن وتؤمّن تقدم المناطق الاستوائية نحو جماعات أكثر عدداً ونحو تمدّن أعلى».

---

1) شيخ أنتاديوب Cheick Anta Diop ، «أمم زنجية وثقافة» مجموعة (الحضور الافريقي) 1955.
يؤكّد هيرودوت أنّ المصريين لم يكونوا في البدء سوى جالية من الأثيوبيين.
ديودور دو سيسيل Diodore de Sicile يكرّر ذات الشيء ، و يعاظم من خطورة الحالة بتوصيف الأثيوبيين بطريقة لا يمكن الخلط فيها.
من المهم الرد عليهم بأقصى ما يمكن . فبقبول ذلك ، ونظراً لعزم كل العلماء الغربيين تقريباً - بشكل مقصود - على اقتطاع مصر من أفريقيا. وأمام عجزهم عن شرح ذلك، فقد تمّ اللجوء إلى عديد الطرق لتحقيقه .
طريقة غوستاف لوبون Gustave Le Bon، تقدّم التأكيد العنيف والوقح : " المصريون هم حاميون . أي أنّهم بيض مثل الليديين / آسيا الصغرى / ومثل المغاربة والبربر والنوميد / شمال أفريقيا / " .
طريقة ماسبيرو Maspero التي تقوم - ضد أي معطى حقيقي - على ربط اللغة المصرية باللغات السامية ، وبالأخص النوع العبري / الآرامي ، مع ما ينتج من أن المصريين لا يمكن أن يكونوا سوى ساميين
- طريقة ويغال Weigall وهي جغرافية، تقوم على أن الحضارة المصرية، ما كانت تستطيع الولادة سوى في مصر السفلى قبل صعودها نحو مصر العليا، سيراً مع النهر ... بمعنى أنها لا تستطيع النزول (هكذا)؟.
ويفهم السبب الخفي لغياب هذه الإمكانية، بأن مصر السفلى قريبة من المتوسط، وبالتالي من الجماهير البيضاء ، بينما مصر العليا قريبة من بلاد الزنوج،
بهذا الخصوص ولمعارضة أطروحة ويغال، من المفيد التذكير بأطروحات شانفورث Scheinfurth (في قلب افريقيا) حول أصل النباتات الإقليمية والبلدية في مصر، والذي يحدده (على مسافة مئات الأميال بالقرب من منبع النهر).

لقد سبق وقلت أن هناك رؤى صحيحة في كتاب غورو. حيث سجّل أن «الوسط الاستوائي ومجتمعات الأهالي، (حين الكشف عن حصيلة الإستدمار)، عانت من إدخال تقنيات ضيقة التكيف، ومن السخرة والعتل والعمل الشاق، من العبودية واقتلاع العمال من منطقة لزرعهم في أخرى، من التبدلات الحاصلة في الوسط البيولوجي، ومن الشروط الخاصة الجديدة والأقل تأقلماً».

أي مسار علمي حافل! وأي رئيس جامعة! أو وزير حين يقرأ ذلك ؟ لقد ترك غورو هذا لمصيره، وانتهى الأمر. سوف يقول كل شيء . إنه يعاود : «توجد البلدان الحارة النموذجية أمام المعضلة التالية : إما جمود اقتصادي وصيانة الأهالي ، أو تطور اقتصادي مؤقت وتراجع وضع الأهالي». «السيد غورو، إنه لأمر خطير! إني أحذرك علانية، فأنت بهذه اللعبة إنما تلعب بموقعك ومستقبلك ».

هوذا غورو يختار الانسحاب الناعم ويغفل عن تحديد أنه :إذا وجدت معضلة الاختيار، فإنها لا توجد إلا في إطار النظام القائم. و أنه إذا شكّل هذا التناقص (بين مبدأين) قانون القلزّ (الصلب)، فهو ليس سوى قانون قساوة الرأسمالية الكولونيالية، الذي يعني مجتمعاً، ليس فقط قابلاً للانهيار بل سبق وولج طريق انهياره.

هذه الجغرافيا غير صافية وكم هي قديمة !

إذا كان هناك ما هو أفضل، فإننا نجده عند الأب المحترم تامبل Tempels. لا بأس أن ننهب، أن نقتل في الكونغو. وليضع المستدمر البلجيكي يده على كل

الثروات، وليخنق كل حرية، ويسحق كل عزة، وليمضي بسلام.. فالأب تامبل يوافقه.

لكن، حذار! أتودون الذهاب إلى الكونغو ؟ احترموا إذاً : لا أقول ملكية الأهالي (فالشركات البلجيكية الكبرى قد تعتبر ذلك حجراً في بستانها .ولا أقول حريتهم (فالمستوطنون البلجيكيون قد يعتبرونه أقوالاً تمردية. كما لا أقول الوطن الكونغولي (فالحكومة البلجيكية قد تستاء جداً منه) ... اقول : تذهبون إلى الكونغو، احترموا إذن فلسفة البانتو!

«سيكون حقاً أمراً غريباً – يكتب الأب تامبل – أن يصمّم المربي الأبيض بعناد، على قتل الروح الإنسانية الخاصة في الرجل الأسود.

إن هذه الحقيقة الوحيدة هي التي تمنعنا من اعتباره كائنا أدنى! فقد تكون جريمة إساءة للإنسانية من قبل المحتل إذا ما أراد تمدين الأعراق البدائية بما له قيمة ، وبما يشكّل نواة الحقيقة في فكرهم التقليدي ... الخ ».

أي كرم، أيها الأب! وأي حميّة !

بالمقابل، لك أن تعلم أن الفكرة (البانتوية) تتعلّق أساسا بماهية الكائن، وماهية الكائن في نظرها تقوم حقا على المفاهيم الجوهرية للقوة الحية وعلى تسلسلها. ومن منظور البانتو أخيراً فإن نظام ماهية الكائن الذي يعرّف العالم إنما هو نابع من الله[1] مقدس ويتوجب احترامه.

---

(1) – من الواضح هنا أن الانتقاد لا يخصّ الفلسفة البانتوية بل الاستخدام الذي يمارسه البعض لأهداف سياسية.

كم الأمر مدهش ! الجميع يكسب هنا: الشركات الكبرى، المستوطنون، الحكومة، باستثناء البانتو بالطبع...

وبما أن فكرة "البانتو" تتعلق بماهية الكائن، فإن البانتويين لا يطلبون لرضا الذات سوى ما ينبع من ذات الماهية : رواتب معقولة ! سكن مريح! غذاء ! إن هؤلاء البانتويين هم أرواح صافية وإني لأقول لكم «أن ما يرغبون به قبل كل شيء وفوق أي اعتبار، ليس تحسين وضعهم الاقتصادي أو المادي، بل أساساً اعتراف واحترام الأبيض لهم، لكرامتهم كرجال ولكامل قيمتهم البشرية».

في الحصيلة إذاً، موقف احترام للقوة الحية البانتوية، ونظرة اعتبار للروح البانتوية الخالدة. هكذا تتم تصفية الحساب! ولتعرفوا أنه حساب عادل.

أما فيما يخص الحكومة، فمما تشتكي؟ طالما يسجّل الأب المحترم تامبيل، بكثير من الرضاء، أن «البانتو عاملوننا بكبير التقدير، نحن البيض، وهذا منذ أول احتكاك، سواء من زاوية نظرهم الممكنة أو من زاوية فلسفتهم البانتوية» و «قاموا بدمجنا في تسلسلهم للكائنات القوية، في مرتبة جد مرتفعة.»

بصيغة أخرى، ها أنتم تجدون الرجل الأبيض في قمة ترتيب القوى الحية البانتوية، ويشكل متفرّد :الرجل البلجيكي، وألبير أو ليوبار بصفة أكثر تفرّداً، وانتهى الأمر. لكم إذن هذه المعجزة: / الإله البانتوي سيضمن النظام الاستدماري البلجيكي، وسيكون مدنساً كل بانتو يجرؤ على التطاول عليه/.

فيما يتعلق بالسيد مانوني Mannouni، فإن آراءه حول الروح الملغاشية وكتابه يستحقان اعتبارهما حالة فاقعة.

لنتابعه خطوة خطوة في مسارب ومنعرجات مقالب شعوذته .وسوف يبين لنا بشكل واضح كالنهار أن الاستدمار يستند إلى علم النفس . وأنه توجد عبر العالم مجموعات من الناس مصابة، لا ندري كيف! بعقدة لا بد من تسميتها بعقدة التبعية . هذه المجموعات مبرمجة لكي تكون تابعة. وهي تحتاج للارتباط الذي تلتمسه وتطالب به وتفرضه. هذه هي حالة الشعوب المستدمرة، وحالة الملغاش بشكل خاص.

هو ذا عشب العنصرية! هو ذا علف الاستدمار! وهو ما يفوح بربرية. بل أنّ السيد مانوني لديه ما هو أفضل : التحليل النفسي، الذي إذا ما زخرف بالوجودية، فإن النتائج ستكون مدهشة: تحسين وتجديد الأماكن العامة الأكثر تدهوراً . شرح وشرعنة الأحكام المسبقة الأكثر حماقة. بينما تصبح الأكياس الهوائية - بفعل سحري - مصابيحاً! أي خديعة !

من الأفضل أن تصغوا إليه :

«إن مصير الغربي يتلاقي وواجب طاعة القيادة: ستترك أباك وأمك. الملغاشي، من جهته ، لا يستوعب هذا الواجب . في حين أن الأوروبي يكتشف في لحظة ما من سياق تطوره ، رغبته الداخلية ... للقطيعة مع روابط تبعيته ، وللتساوي مع أبيه . وهذا لا يحدث أبداً مع الملغاشي الذي يجهل التنافس مع سلطة الأب و «الاحتجاج الرجولي» والدونية الأدلرية (نسبة إلى عالم النفس Adler). وهي اختبارات لا بد أن يجتازها الأوروبي ، فهي أشبه بصيغ مدنية ... وبطقوس الولوج إلى عالم الرجولة...».

يجب ألا تخيفكم حذاقة المفردات والتعابير الجديدة ! إنكم تعرفون اللازمة: «الزنوج هم أطفال كبار». يأخذون الزنجي ويلبسونه ثم يوقعونه في الشرك. والنتيجة نجدها عند السيد مانوني. مرة أخرى، فلتطمئنوا! فقد يبدو الأمر متعباً لحظة الانطلاق، لكن حين الوصول ..سترون، ستجدون جميع حقائبكم . لن ينقص شيء، حتى حمولة الرجل الأبيض الشهيرة.

فلتنظروا، إذن: «عبر هذه الاختبارات - المخصصة للرجل الغربي - يتم الانتصار على خوف الطفل و مشاعر الإهمال، ويتوفّر اكتساب الحرية والاستقلالية، السامية جداً والثقيلة أيضاً في الغرب».

ولسوف تقولون، وما هو حال الملغاشي؟ سيجيبكم كيبلينغ Kipling بأنه عرق، رقيّ وكذوب. وسوف يشخص السيد مانوني: «لا تفكروا بتصور مشابه لوضعية (الإهمال) عند الملغاشي ... فهو لا يرغب باستقلالية ذاتية ولا بمسؤولية حرّة.» (انظروا . هؤلاء الزنوج لا يتصورن حتى ما تعنيه الحرية، فهم لا يرغبون ولا يطالبون بها. إن الموجّهين البيض هم من يقحمها في رؤوسهم. وإذا ما حدث ووهبوهم هذه الحرية، فلن يعرفوا ما يصنعون بها).

وإذا ما لفتنا نظر السيد مانوني أنّ الملغاش سبق وتمردوا في عديد المناسبات منذ الاحتلال الفرنسي، وآخرها في عام 1947. فإنّ السيد مانوني - وفياً لمقدماته - سيشرح لكم أن الأمر يتعلق بمجرد سلوك عصابي أو جنون جماعي وربما سلوك انتحار بالجملة . وهو من جهة أخرى وفي هذه الحالة، لا يعني بالنسبة للملغاش انطلاقة جادّة لتحقيق مكاسب حقيقية، بل " لأمن موهوم " وهو ما يعني بوضوح أن الاضطهاد الذي يعانونه هو موهوم أيضاً . موهوم إلى درجة من الوضوح والخبل ،

بحيث يجوز الحديث عن نكران فاضح للجميل ، وفق النموذج التقليدي لفيجيان (Fidjien) الذي يحرق منشر الملازم الذي شفاه من جراحه.

وإذا ما انتقدتم الاستدمار الذي يدفع الجماهير الأكثر مسالمة إلى اليأس، فإنّ السيد مانوني سيشرح لكم أنّ المسؤول في نهاية الأمر، ليس المستعمر الأبيض، بل أبناء المستعمرات الملغاش. يا للشيطان ! فهم ينظرون للبيض كآلهة وينتظرون منهم كل ما ينتظرون من الله . . .

وإذا ما وجدتم أن العلاج المعتمد للعصاب الملغاشي كان قاسيا بعض الشيء. فإنّ السيد مانوني – الذي لديه جواب لكل شيء – سيثبت لكم أن الفظاعات الشهيرة التي يتم الحديث عنها مبالغ جداً بها، بل هو يعود إلى خيال عصابي. وأن التعذيب خيالي أيضاً مارسه «جلادون موهومون».

أما الحكومة الفرنسية – من طرفها – فقد أظهرت اعتدالاً متميزاً، حيث اكتفت بإيقاف النواب الملغاشيين، بينما كان عليها التضحية بهم لو أرادت احترام القوانين الخالصة لعلم النفس.

لست أبالغ أبدا. هو ذا السيد مانوني يكلمكم: «تبعاً للطرق التقليدية جداً، فإن هؤلاء الملغاش يحولون قدّيسيهم إلى شهداء، ومخلصيهم إلى أكباش فداء. ويريدون غسل خطاياهم الخيالية، بدم آلهتهم بالذات. لقد كانوا مهيئين، بهذا الثمن، أو بالأحرى بهذا الثمن فقط ، إلى قلب موقفهم مرة أخرى. إن إحدى سمات هذه السيكولوجية التبعية تجعل– طالما أنّ أيّاً كان لا يستطيع الخضوع لسيدين معاً من المناسب التضحية بأحدهما لصالح الآخر. فالقسط الأكثر اضطرابا في

مستدمري تاناناريف (Tannanrive) إنما يتضمن بشكل مبهم أساس نفسية الأضحية، حيث كان الملغاش يطالبون بضحاياهم. لقد حاصروا المحافظة العليا مؤكدين أنهم لو تسلّموا دم بعض الأبرياء فإن (الجميع سيكون راض) . هذا الموقف المخجل إنسانياً يستند إلى إدراك دقيق - بشكل عام - للإضطرابات الانفعالية التي تجتازها جماعات الهضاب العليا . "

من هنا، يبدو واضحاً، أنه لا يوجد سوى خطوة واحدة لتبرئة المستعمرين المتعطشين للدم. وهكذا أيضاً فإن »علم نفس« السيد مانوني «مجرد» أيضاً و«حر» كذلك ، مثل جغرافية السيد غورو واللاهوتية التبشيرية للأب المحترم تامبل!

إننا نلاحظ الوحدة الآسرة لكل هذا، والمحاولة البرجوازية المثابرة لربط القضايا الأكثر إنسانية بمفاهيم مريحة وفارغة مثل :

- فكرة عقدة التبعية عند مانوني.
- فكرة ماهية الكائن عند الأب المحترم تامبيل.
- فكرة «الاستوائية» عند غورو.

أين يصبح (بنك الهند الصينية) أمام كل هذا ؟ وبنك مدغشقر؟ والمصايد؟ والضرائب ؟ وكمشة الرز للملغاشي؟ وهؤلاء الشهداء ؟ والأبرياء الضحايا ؟ والأموال المضرّجة التي تتراكم في مخازنكم أيها السادة ؟ لقد تبخّرت ! واختفت! واختلطت وضاعت معالمها في مملكة المماحكات الصفراء.

لكنّ تعاسةً ما، تقف أمام هؤلاء السادة. حيث أن الإدراك البرجوازي يزداد تمرداً على المكر. زد أن أسيادهم محكومون بالانفضاض عنهم أكثر فأكثر، ليصفقوا أكثر فأكثر قوة لآخرين أقل حذاقة وأشدّ فظاظة. وهذا هو بالضبط ما يوفر حظاً أكبر للسيد إيف فلورين Yves Florenne. بالنتيجة، لننظر إلى عروض خدماته الصغيرة، مرتّبة بكل حكمة على حلبة صحيفة لوموند Le Monde . ما من مفاجأة ممكنة.

كل شيء مضمون، فعالية محققة . هكذا نصبح وبالتجربة العملية والحاسمة، أمام عنصرية فرنسية، ما زالت ضعيفة لكنها واعدة. الأفضل أن تسمعوا:

«قارئتنا . . . (سيدة أستاذة تجرأت على مناقضة السيد النزق فلورين) تعبرّ - وهي تتأمل شابين هجينين من طلبتها - عن مشاعر الفخر التي يثيرها الاندماج المتزايد في عائلتنا الفرنسية . . هل سيكون انفعالها ذاته لو شاهدت العكس ، إذا ما اندمجت فرنسا في العائلة السوداء (أو الصفراء أو الحمراء، ليس مهماً) أي لو ذابت واختفت ؟»

من الواضح بالنسبة للسيد إيف فلورين أن الدم هو الذي يصنع فرنسا، وأن أساسات الأمة هي بيولوجية: «شعبها، عبقريتها هي نتيجة توازن آلاف السنوات، صارم ودقيق بالوقت ذاته و .. بعض التصدعات المقلقة في هذا التوازن تتلازم مع نفاذ كثيف وغالباً خطير لدم أجنبي منذ ثلاثين عاماً».

في الحصيلة إذاً ، إنما العدو، هو اختلاط الأجناس. أكثر مما هو الأزمة الاجتماعية و أكثر من الأزمة الاقتصادية . فلم يعد هناك سوى الأزمات العرقية! بالتأكيد ، لا تفقد الإنسانية شيئاً من حقوقها، (فنحن هنا في الغرب)، لكن لنسمع:

«ليس بالضياع في العالم الإنساني بدمها وبروحها، تصبح فرنسا عالمية، بل أن تبقى ذاتها». أنظر أين وصلت البرجوازية الفرنسية بعد خمس سنوات من هزيمة هتلر !صوفي هذا بالذات يركن قصاصها التاريخي : أن تكون محكومة باجترار قيء هتلر، كعلّة تعاودها.

وفي النهاية، هو ذا السيد إيف فلورين أصبح يتقن أيضاً روايات الفلاحين و" مآسي الأرض" وقصص الشؤم (العين السيئة)، عندما يعلن هتلر والشؤم هنا يغاير بطل جيتاتورا Jettatura الفلاحي/ : «يكمن الهدف الأعلى للدولة - الشعب في الحفاظ على العناصر المنشئية للعرق، التي تبدع الجمال والعزة لإنسانية أسمى، عبر نشرها للثقافة».

السيد إيف فلورين يعرف تسلسل النسب هذا :

وهو لا يحترس من أدنى حرج.

لا بأس، إن ذلك من حقّه.

كما ليس من حقنا أن نسخط لذلك.

حيث لا بد من تحديد الموقف والإفصاح نهائياً عن أن البرجوازية محكومة بأن تصبح في كل يوم، أكثر شراسة وأكثر وضوحاً في عدوانيتها وأكثر افتقاراً للحياء وأكثر تعميماً للبربرية. وإنه لقانون لا يقهر، يخص كل طبقة هابطة لا بد أن تعيش تحولها إلى إناء تتدفق نحوه كل مياه التاريخ القذرة. كما أنّ هناك قانونا عالميا يوضح كيف أن كل طبقة قبل زوالها، لا بد أن تتسربل تماما بالعار ومن كل جهاتها. فمع طمر الرأس تحت المزبلة تصرخ المجتمعات المحتضرة غناء أوزها.

في الواقع، إنه لملف ثقيل.

حينما يمارس الحيوان الشرس تمرين حيويته الغريزي فإنه، يريق الدم وينشر الموت. ونحن نتذكر تاريخيا، أنه بهذه الصيغة للنموذج المتوحش، ظهر أمام ضمير وروح الفضلاء، إعلان المجتمع الرأسمالي.

والحيوان هذا ، كان أن أصيب بفقر الدم من حينه، فندر شعره، وزالت لمعة جلده، لكن وحشيته استمرت واختلطت بالسادية. يتهم هتلر بدلاً من غيره، كذلك روزانبورغ وجونجر والآخرين . وتهتم الشرطة العسكرية لهتلر (س.س) بدل غيرها.

لكن : «كل ما في هذا العالم أصبح ينصبّ على الجريمة: الصحيفة، السور، ووجه الإنسان».

هذا ما قاله بودلير (Baudelaire) ولم يكن هتلر قد ولد بعد! إنّه البرهان على ميلاد الشرّ من بعيد.

و إيزدورد دوكاس ، كونت لوترىامونت Isidiore Ducasse. (شاعر فرنسي، اواسط القرن التاسع عشر ، عرف بعنف شعره توهّما وسخرية - أغاني مالدورور 1870ـ المترجم) .

لقد حان الوقت بهذا الخصوص - لتلاشي جو الفضيحة الذي أثير حول أغاني مالدورور (Chants de Maldoror).

قباحة مثيرة ؟ نيزك أدبي؟ هذيان خيال مريض؟ يكفي إذاً ؟ كم ذلك سهل !

الحقيقة أنّ)لوتريامونت(لم يفعل سوى النظر في عيون الرجل الحديدي الذي اختلقه المجتمع الرأسمالي لإخافة (التنين) .التنين اليومي، بطله.

لا أحد ينكر صدقية بلزاك.

لكن ، انتبهوا: لو جعلتموه يسترخي غارقاً في تأملاته ، بعد عودة من البلاد الساخنة، ووضعتم له أجنحة رئيس الملائكة وارتعاشات الملاريا، وأرفقتم معه على البلاط الباريسي موكباً من مصاصي الدماء الأوروغوايين ومن نمل (تامبوستا) ، فإنّكم ستحصلون على مالدورور.

حتى مع صيغة مختلفة للديكور. يبقى الأمر يتعلق بذات العالم وبذات الرجل القاسي الذي لا يفلّ، لا رادع له ، مغرم ، ما من شبيه له . إنّه «من لحم الآخر» .

إني أعتقد - وأنا أفتح قوسين داخل قوسيّ - أنه سيأتي اليوم حيث تجمع كل العناصر، وتكشف كل المصادر، وتوضح كل ملابسات العمل، ليصبح من الممكن أن يقدّم (لأغاني مالدورور) تفسير مادي وتاريخي ، يظهر في هذه الملحمة الساخطة وجهاً ليس خافياً جداً، وجه الفضح الحاسم لصفة جد محددة للمجتمع، لصيغة ما كان لها أن تهرب أمام أكثر النظرات الثاقبة حدة نحو عام 1865.

من المفهوم فيما سبق، أنّه كان يتوجب تخليص الطريق من التعليقات الخفية والميتافيزيقية التي كانت تربكه. حيث تعطى الأهمية لتلك المقاطع الشعرية المهملة - مثل ذاك المقطع الغريب لـ (منجم القمل)، وحيث لا نقبل أن نرى ، لا أكثر و لا أقلّ من فضح السلطة المشؤومة للذهب وكنز الثروات. وحيث ترميم

المكانة الحقيقية لزمن عربات النقل الرائع والموافقة على العثور فيه – ما يوجد فيه- دون سلاسة كبيرة، مثل الرسم الضعيف الرمزية لمجتمع يرفض أصحاب الامتيازات المسترخون في مقاعدهم، أن يضغطوا قليلا على بطونهم لترك مكان للقادم الجديد. مجتمع يحتضن الطفل المتروك لقساوة الحياة. الشعب ! .. يتمثل هنا بلقّاط الخرق.

لقّاط خرق بودلير :

ودون أن يهمل الوشاة من أبنائه.

يسكب من قلبه في روعة مشروعه.

يقسم الأيمان، يمليها قوانين جليله.

يردم الخبث، ويرفع من ضحاياه الأصيله. / بتصرّف - المترجم /

أليس صحيحاً، حينئذ، أن نفهم أن العدو الذي صنعه لوتريامون عدواً، «الخالق» آكل البشر ونازع الأمخاخ. السّادي «الجاثم على تاج من غائط البشر والذهب. المنافق الفاجر والكسول الذي يأكل خبز الآخرين» والذي نجده من وقت لآخر مخموراً «مثل بقّةٍ لعقت خلال الليل ثلاثة براميل من الدم». وأن نفهم أن هذا الخالق، ليس لنا أن نفتش عنه خلف الغيوم بل لنا وافر الحظ أن نجده في دليل (Desfossées) السنوي، وفي بعض مجالس الإدارة المرفهة.

لكن، لندع هذا.

الأخلاقيون لا يستطيعون هنا شيئاً.

والبرجوازية - كطبقة - محكوم عليها، سواء أردنا أم لا، أن تتحمّل وزر كامل بربرية التاريخ، وتعذيب القرون الوسطى مثل : التحقيق التعسفي والمصلحة العليا للدولة مثل مبدأ القوة الحربية. والعنصرية مثل الاستعباد. أي باختصار، تتحمل وزر كل الذي كانت قد احتجت ضده بعبارات لا تنسى، في الزمن الذي كانت فيه طبقة في حالة هجوم، تجسد التقدم الإنساني.

الأخلاقيون لا يستطيعون هنا شيئاً. حيث هناك قانون النزع المتدرج للأنسنة، الذي بموجبه من الآن فصاعداً، لا يوجد ولا يمكن أن يوجد حالياً، على الجدول اليومي لأعمال البرجوازية ، سوى العنف والفساد والبربرية.

كدت أنسى البغض والكذب والكفاية.

وكدت أنسى السيد روجيه كايوا[1] Roger Caillois حيث أعطيت للسيد كايوا مهمة أبدية تتعلق بتعليم صرامة الفكر وهيبة النمط على مدى قرن جبان وبذيء . هاهو السيد كايوا على غضب شديد.

الدافـــــــــع ؟

الخيانة الكبيرة من قبل علم الأجناس الغربي الذي يعرف منذ بعض الوقت تراجعاً يرثى له في الإحساس بمسؤولياته، والذي يتفنن في زرع الاعتقاد بالتفوق المتعدد الوجوه للحضارة الغربية على الحضارات الأخرى.

فجأة، ينشط السيد كايوا حملته.

إنها فضيلة أوروبا أن تبعث البطولات المنقذة في اللحظات الأكثر حرجاً.

لا يجوز عذرنا إذا لم نتذكر السيد ماسي Massis الذي خاض حربه الصليبية نحو 1927 للدفاع عن الغرب.

---

(1) انظر روجيه كايوا، «أوهام معكوسة»، الصحيفة الفرنسية الجديدة، ديسمبر وجانفي 1955

كما نودّ التأكد من تخصيص مصير أفضل للسيد كايوا الذي يحول ريشته للدفاع عن القضية المقدسة نفسها، إلى سيف طليطلة.

ماذا قال السيد ماسي؟ إنه يرثي لحال «مصير المدنية الغربية، مصير الإنسان باختصار»، الذي أصبح اليوم مهدداً. لنجهد من كل طرف «لاستدعاء قلقنا، والاحتجاج على عناوين ثقافتنا، ولمراجعة الأساس فيما لدينا»، والسيد ماسي يقسم أن يشعل الحرب ضد هؤلاء «الأنبياء الفاجعة».

السيد كايوا، من جهته ، لا يشخّص العدو خلاف ذلك. إنه هؤلاء « المثقفين الأوروبيين» الذين «بسبب إخفاق وحقد جدّ حادّين» يتكالبون منذ خمسين سنة «على انكار مختلف المثل العليا لثقافتهم» وبالتالي فهم يحافظون على «ضيق مستحكم، خاصة في أوروبا».

هذا الضيق وذلك القلق هما ما يريد السيد كايوا من جهته ، أن يضع لهما حداً[1] .

---

(1) من الواضح والمعبّر ، انّه في اللحظة التي شرع السيد كايوا بحربه الصليبية ، فإنّ (صحيفة إستعمارية بلجيكية) ، قريبة من الحكومة (أوروبا – أفريقيا ، عدد 6 – جانفي 1955) اندفعت في عدوان مشابه ضد علم السلالات : " في السابق ، كان المستعمر يفهم علاقته مع ابناء المستعمرات، وبشكل جوهري ، كما لو انّها بين إنسان حضاري و آخر متوحّش . بحيث انّ الاستعمار يستند هكذا على مراتبية فظّة بالتأكيد ، لكنها صارمة وواضحة".

هذه العلاقة المراتبية هي ما يتهم كاتب المقال السيد بيرون PIRON، علماء السلالات بتدميرها مثلما يلقي السيد كايوا بالمسؤولية على ميشيل ليريس وليفي ستراوس.Michel Leiris- levi strauss.

فهو ينتقد الأول حول ما كتبه في كراسه (المسألة العرقية أمام العلم الحديث)، «من الصبيانية إرادة وضع مراتب للثقافات». كما يأخذ على الثاني هجومه على نظرية "التطور المزيف" حين «يحاول إلغاء تنوع الثقافات، معتبراً إياها كمراحل تطور وحيد لا بد أن تصب في ذات الهدف طالما انها تنطلق من نفس النقطة ». بيد انّه يخصص مصيراً محدّداً إلى ميرسيا إلياد Mircea Eliade الذي تجرا على كتابة الجملة الآتية: (لم يعد امام الاوروبي الآن مجرد أهالي، بل محاورين. من المفيد ان نعرف كيف نباشر الحوار معهم . فلقد اصبح ضرورياً أن نعترف انه لم يعد هناك من انقطاع في التواصل بين العالم (البدائي) أو (المتخلف) وبين الغرب المتمدن».

اخيرا، يؤخذ – ولو لمرّة – على الفكر الامريكي مبالغته في المساواة . فلقد اكّد أوتو كلينبرج Otto Klinberg استاذ علم النفس في جامعة كولومبيا ، انّه «لخطا كبير اعتبار الثقافات الاخرى كثقافات دنيا قياساً بثقافتنا، فقط لأنها مختلفة».

بالتأكيد فإنّ للسيد كايوا رفاقاً جيدين.

في الواقع، ومنذ إنكليزي العهد الفيكتوري، ما من شخصية أبدا طافت عبر التاريخ بضمير أكثر هدوءا وأقل تلبداً بالشك.

أمّا عقيدته ؟ فهي تتميز بالبساطة.

و تقوم على أنّ الغرب هو من اخترع العلم. وهو فقط من يعرف أن يفكر. وأنه على حدود العالم الغربي تبدأ المملكة المظلمة للفكر البدائي، المفتقد للمنطق والخاضع (لمفهوم المساهمة)، والذي يمثل النموذج الأكيد للفكر الزائف.

هنا، لا بد أن ننتفض. ونعترض لدى السيد كايوا حول قانون (المساهمة) الشهير الذي وضعه السيد لفي بروهل ، وتنكّر له بذاته، حين أعلن في وجه العالم - عشية نهاية حياته - أنه أخطأ «حين أراد تحديد سمة خاصة بالذهنية البدائية من منظور المنطق» وأنه على العكس من ذلك، لقد اكتسب قناعة بأن «هذه الذهنيات لا تختلف قطّ عن ذهنيتنا - كمنطق - فهي لا تتحمّل أكثر منّا تناقضاً قطعياً.. كما ترفض مثلنا، بكيفية رد فعل ذهني، كل ما هو مستحيل منطقياً»[1]

جهد ضائع ! فالسيد كايوا يعتبر أن هذا التصحيح باطل ولاغ. فهو يرى أن ليفي بروهل الحقيقي لا يمكن أن يكون سوى/ليفي بروهل/الذي يعتقد بشذوذ " البدائي".

يبقى بالتأكيد جملة من الوقائع التي تدحض : كمعرفة، أن اختراع الحساب والهندسة إنما يعود للمصريين، واكتشاف الفلك يعود إلى السريان، والجبر للفرس، وولادة الكيمياء للعرب، وظهور العقلانية وسط الإسلام في زمن كان الفكر الغربي يبدو - وبدرجة مخيفة - في مرحلة ما قبل المنطق.

(1) دفاتر لوسيان ليفي بروهل، الصحافة الجامعية لفرنسا 1949

لكن السيد كايوا سرعان ما يردع هذه التفاصيل السفيهة ؟! ، بمبدأ قطعي يقول «بأن كل اكتشاف لا يدخل في إطار مجموعة» ليس ، تحديداً، سوى تفصيل، أي أنّه (لا شيء) مهمل.

يمكننا أن نقدر أن السيد كايوا بانطلاقته هذه لن يتوقف في طريقه.

فبعد أن ألحق العلوم به ، ها هو يدّعي علم الأخلاق.

فكّروا إذاً ! فالسيد كايوا لم "يأكل" يوما أحداً، ولم يفكر أبدا بالإجهاز على معاق! أو باختزال الأيام الأخيرة لأهله الشيوخ ! هكذا يبين تفوّق الغرب : « إنّ نظام الحياة هذا يجهد للوصول إلى تأمين الاحترام الكافي للشخصية الإنسانية ،حتى لا نجد سلوك التخلص من الشيوخ والمعوقين سلوكاً طبيعياً»

والخلاصة تفرض نفسها: إنّ أوروبا ، إنما تجسّد مع الغرب -مقابل أكلة لحوم البشر والجزارين والكسارين الآخرين، احترام الكرامة الإنسانية.

لكن لنمضي ونسرع خشية أن يتحول فكرنا نحو الجزائر والمغرب وأماكن أخرى، حيث في هذه اللحظة التي أكتب فيها، كم هناك من أبناء الغرب اليقظين الذين يسرفون بتطبيق ماركاتهم الأصيلة لاحترام الكرامة الإنسانية المسماة وفق التعبيرات التقنية : «المغطس»، «الكهرباء» «عنق الزجاجة»، وذلك على إخوتهم الدونيين ، في تلك الزنزانات المضيئة - المظلمة.

لنسرع أيضاً : فالسيد كايوا ليس بعد في نهاية إنجازاته ومفاخره . إذ بعد التفوق العلمي والأخلاقي ، هناك التفوق الديني . . . !

هنا، يتحرّز السيد كايوا من الانزلاق في غواية السحر العبثي للشرق. ربما كانت آسيا أمّ الأديان، إلا أنّ أوروبا في كل الحالات هي سيدة الطقوس . . انظروا تحفته :

"إننا نجد خارج أوروبا، من جهة ، احتفالات من نموذج (فودو Vaudou = عبادة سكان جزر أنتيّه)، مع كل ما تتصف به »من مجازر ساخرة، وسعار جماعي وسكر رثّ واستغلال فظّ لورع ساذج . وبالمقابل نجد في أوروبا، تلك القيم الأصيلة التي كان يحتفل بها شاتو بريان في (عبقرية المسيحية): «عقائد وأسرار الديانة الكاثوليكية، طقوسها ورموز نحاّتيها ومجد تراتيلها».

وفي النهاية ، دافع الرضا الأخير:

يقول غوبينو Gobineau: ما من تاريخ سوى الأبيض.

والسيد كايوا من جهته يلاحظ: أنه ما من علم أجناس سوى الأبيض. فالغرب هو الذي يقوم بمعرفة سلالات الآخرين، وليس العكس.

هو ذا مصدر ابتهاج حادّ ، أليس كذلك؟

لم يخطر لحظة للسيد كايوا أنه كان من الأفضل أن يأخذ هذه المتاحف التي يمتدحها دون الحاجة لفتحها . وكان من الأفضل لأوروبا أن تتقبل بجانبها تلك الحضارات غير الأوروبية بحيويتها وديناميتها وتقدمها ، كاملة وغير مشوّهة .وأن تترك لتتطور وتستكمل تطورها بحرية، بدل أن تقدّمها لنا كي نتمتع بأشلائها المبعثرة وأعضائها الميتة المعنونة . .ومع ذلك، فإن المتحف ليس شيئاً بذاته، ولا يعني شيئاً ، كما لا يمكنه أن يعني شيئاً حين يغشّي بسعادة الرضا عن الذات كل العيون، وحين تفسد العنصرية -المباحة أم لا- كل الودّ . . لا يعني شيئا إذا ما قصد منه توفير متع الحب النرجسي . وفوق كل هذا، لقد كان النزيه المعاصر : دو سان لويس DE SAINT LOUIS أوفر حظاً لمعرفة الإسلام وهو يحاربه ويحترمه

بالوقت ذاته ، من معاصرينا الذين يحتقرونه، حتى هؤلاء الذين احتكوا بأدبيات علم السلالات.

كلا، لا يمكن أبدا لوزن جميع متاحف العالم أن يقابل - في ميزان المعرفة والاعتراف - شرارة من نور الودّ الإنساني.

ما هي حصيلة كل هذا ؟

لنكن عادلين، فالسيد كايوا معتدل.

إذ، بعد إثبات تفوق الغرب في كل الميادين وتوكيد مراتبية صافية وثمينة، يقدم السيد كايوا برهاناً مباشراً على هذا التفوق ، باستخلاصه أنه لم يقم بإبادة أحد . وليكن الزنوج - معه - على ثقة بأنهم لن يعدموا دون محاكمة، و كذا اليهود فإنّهم لن يطعموا محارق جديدة . فقط ، حذار: فمن المهم أن ندرك أنّ هذا التسامح مع الزنوج واليهود والأستراليين لا يعود إلى استحقاقات كل منهم بل إلى شهامة السيد كايوا ، كما لا يعود إلى إملاء العلم الذي لن/ يوفر سوى حقائق عابرة / بل إلى قرار من ضمير السيد كايوا الذي لن يكون إلا مطلقاً. ومن الضروري معرفة أن هذا التسامح -ما من شروط له وما من ضمانات -سوى أن السيد كايوا يريده لذاته.

ربما يأتي يوم يأمر العلم فيه ،بتخليص طريق الإنسانية من هذه الأوزان الثقيلة، ومن هذه العقبات التي تمثّلها الثقافات المتخلفة والشعوب المتأخرة.. لكننا متأكدون أنه في اللحظة المصيرية، سوف يتحرك فوراً ضمير السيد كايوا صاحب الضمير الحيّ، كضمير طيّب ،ويوقف الذراع القتال ويعلن «هنا نصلّي للعذراء (مريم)». وهو ما يستحق النص الممتع ،أدناه:

«بنظري، فإن قضية المساواة بين الأعراق والشعوب والثقافات ليس لها من معنى إلا إذا عنت مساواةً في الحقوق وليس مساواة الأمر الواقع. بالطريقة ذاتها، فإن الأعمى والمعوق والمريض والأبله والجاهل والفقير (وليس لنا أن نكون أكثر لطفاً مع غير الأوروبيين) لن يكونوا متساوين بالتسلسل، وبالمعنى المادي للكلمة، مع: رجل قوي، بعيد النظر ، كامل، سليم، ذكي، مثقف أو غني. فهؤلاء يملكون زيادة ، إمكانات ضخمة دون أن تعطيهم على كل حال حقوقا أكثر. إنما فقط، واجبات أكبر. كذلك يوجد حالياً فروقات في المستوى والطاقة والقيمة بين الثقافات المختلفة، سواء عادت لأسباب بيولوجية أو تاريخية .. كل هذا لا يبرر بأي شكل لا غياب المساواة في الحقوق لصالح الشعوب المسماة متفوقة، كما تبغي العنصرية. لكنها تعطي على الأرجح مهمات إضافية ومسؤولية متزايدة».

مسؤولية متزايدة ؟ ماذا إذاً، إذا لم تعني قيادة العالم ؟

عبء إضافي؟ ماذا غير عبء هذا العالم؟

وأن يتكئ السيد كايوا /الأطلس العملاق ، ويزفر في الغبار – محبة للإنسانية – حاملاً على أكتافه الضخمة العبء الذي لا مفرّ للرجل الأبيض من حمله .

أرجو المعذرة لهذه الإطالة في حديثي عن السيد كايوا.

حيث لا يعود الأمر إلى تقديري العالي – بأية درجة كانت – للقيمة الداخلية «لفلسفته»، بل لأنها تستحق الإشارة و لأنها معبرة . (كان من الممكن الحكم على جدية فكرة تضحّي – رغم إدعائها الدقة العلمية – ببعض الأحكام المسبقة ومع تقدير من المجاملة، وتتوحّل بشهوانيتّها هذه في المكان العام).

عما تعبرّ؟

عن ذهنية آلاف وآلاف الرجال الأوروبيين، وبالضبط عن نفسية البرجوازية الصغيرة في الغرب.

وعما تعبر أيضاً ؟

عن أن الغرب لم يكن قطّ أكثر بعداً عن التكفل بمستلزمات إنسانية حقّة، وعن إمكانية عيشه الإنسانية الحقّة. إنسانية على مقاس العالم، في الوقت ذاته الذي يسرف في تلمّظ الكلمة .

من بين القيم التي اخترعتها البرجوازية، ونشرتها عبر العالم : واحدة تتعلق بالإنسان والإنسانية ، ولقد لمسنا أين أصبحت . وأخرى تتعلق بالأمّة.

واقعيــاً ، الأمة هي ظاهرة برجوازية.

لكن بالضبط، إذ ما صرفت عيوني عن الإنسان لأنظر إلى الأمم، فإني ألاحظ هنا أيضاً كم المجازفة كبيرة. وكيف أن المشروع الاستدماري بالنسبة للعالم الحديث هو ما كانته الأمبريالية الرومانية للعالم القديم: الإعداد للمصيبة والتأشير للنكبة.

ماذا ؟ لقد ذبح الهنود، وأفرغ العالم الإسلامي من ذاته، واتسخ العالم المسيحي وفقد طبيعته لقرن وأكثر، وجرّد العالم الزنجي من أهليته. أسكتت – وإلى الأبد – أصوات لا تعد ولا تحصى، بعثرت الديار في الرياح، تلف وإسراف لا يوصفان ، وإنسانية اختزلت إلى مناجاة الذات .. فهل تعتقدون أنه ليس من ثمن لكل هذا ؟

الحقيقية أن خسارة أوروبا – ذاتها – مسجلة في سياق هذه السياسة. وأن أوروبا إذا لم تحرز لذلك، فإنّها ستهلك من الفراغ الذي صنعته حولها.

كانوا يعتقدون أنهم لا يقتلون سوى الهنود والهندوس والأوسيانين والأفارقة. بيد أنّهم قلبوا متاريسهم الواحد بعد الآخر، كيما تستطيع المدنية الأوروبية أن تتطور بحرية.

أدرك كل ما هو مخاتل في الأمثلة التاريخية وفي ما سوف أسوقه خاصة. مع ذلك، فليسمح لي أن أنقل صفحة لـ كينيه (Kinet) لما تحتويه على جزء من الحقيقة التي ستحقق التأمل.

إليكم هذه الصفحة :

«يتساءل المرء كيف انطلقت البربرية فجأة في الحضارة القديمة. أعتقد أنّه بإمكاني الإجابة . و من الغريب أن لا يبهر العيون سبب بهذه البساطة. لقد كان نظام المدنية العتيقة يتركب من عدد من الجنسيات والأوطان، التي رغم ما كانت تبدو عليه من عداوة أو من تجاهل في وسطها، فإنها كانت تتحامى وتتداعم وتحفظ بعضها بعضاً. وحينما باشرت الامبراطورية الرومانية - خلال توسّعها - بالاستيلاء وتحطيم بناء هذه الأمم، ظن السفاسطة المنبهرون برؤية انتصار الإنسانية في روما في نهاية الطريق.

لقد تم الحديث عن وحدة الروح البشرية، و هو ما كان مجرّد حلم .

وكانت أن شكلت هذه الجنسيات في واقع الحال، عديد (الطرق العريضة) لحماية روما ذاتها ... لذا، حين دمرتّها روما خلال مسيرتها التوسعية المزعومة نحو المدنية الوحيدة، واحدة بعد الأخرى : من قرطاجة ومصر واليونان وفلسطين وفارس، ورومانيا، وبلاد /الغال/، حدث أن افترست بذاتها الأسوار التي كانت تحميها من المحيط البشري، الذي توجّب عليها لاحقا الانهيار تحته.

وقيصر، الشهم (Cesar)، بسحقه بلاد /الغال/، لم يفعل سوى فتح الطريق أمام الجرمانيين.

فكم هي عديدة تلك الأوطان واللغات التي انطفأت، و المدن والحقوق والديار التي دمرّت، مما خلق فراغاً حول روماً. وحين لم يكن بمقدور البرابرة أن يحلّوا، فقد ولدت البربرية من ذاتها، وتحوّل أبناء /الغال/ المحيطين إلى باغود (Bagaudes). هكذا فإنّ السقوط العنيف والاستئصال المتدرج للمدنيات الخاصة أدّى إلى انهيار المدنية القديمة. فلقد كانت تذكّر بهذا الصرح الاجتماعي مثل ما يفعله عديد الأعمدة المختلفة من رخام ومرمر.

فعندما تحطّمت كل من هذه الأعمدة الحية، تحت تصفيق (حكماء) ذلك الزمان، انطرح الصرح أرضاً. وهاهم (حكماء عصرنا) مازالوا يبحثون كيف أمكن لكل هذه الأطلال الضخمة أن تحصل في لحظة!».

هكذا يحقّ لنا أن نسأل: ماذا فعلت أوربا البرجوازية غير ذلك؟ لقد نسفت الحضارات، وحطمت الأوطان ودمرت الجنسيات، واستأصلت «جذر التنوع». ما من سور، ما من طريق. لقد حانت ساعة البربري. البربري الحديث. والساعة الأمريكية. العنف والمبالغة والتبذير وشره التجارة والخداع والغريزة الجماعية، والحماقة والسوقية والفوضى.

في عام 1913، كتب باج (Page) إلى ويلسون:

«مستقبل العالم لنا. ماذا سنفعل حين تصبح الهيمنة على العالم، قريباً بين أيدينا؟»

وفي عام 1914: « ماذا سنفعل قريباً بإنكلترا وبهذه الإمبراطورية عندما ستضع القوى الاقتصادية قيادة العرق (الأبيض) بين أيدينا».

هذه الإمبراطورية ... والأخريات ...

ألا تلاحظون من هنا ، مدى تباه هؤلاء السادة وهم ينشرون راية مناهضة الكولونيالية ؟

«مساعدة البلدان الفقيرة» يقول ترومان . «لقد ولّى زمان الكولونيالية القديمة» ترومان، مرّة أخرى.

فلتدركوا أن الرأسمال الأمريكي الكبير يعتقد أن الساعة قد حانت ليخطف كل مستعمرات العالم. احذروا إذاً، يا أصدقائي الأعزاء من هذا الجانب.

إني أقدّر أن كثيرا منكم، قرف من أوروبا ومن نتانتها الكبيرة التي لم تختاروا أن تكونوا شهودا عليها، وأنّ البعض القليل يلتفت نحو أمريكا يالف النظر إليها كمخلّص محتمل.

«إنه الحظ ، كما يعتقدون».

«بلدوزورات ! استثمارات مالية ضخمة، الطرق، المرافئ! ».

«لكن هناك العنصرية الأمريكية ! ».

«والعنصرية الأوروبية في المستعمرات عوّدتنا على الحروب! ».

وها نحن جاهزون للمغامرة مع خطر اليانكي الكبير.

حذار، مرة أخرى !.

فالهيمنة الأمريكية هي الوحيدة التي لا نستطيع النفاذ منها ، أقصد أننا لن ننفذ منها سالمين تماماً.

ولطالما تتحدثون عن المعامل والصناعات ..ألا ترون هذه الهستيريا في قلب غاباتنا وأدغالنا تبصق بقايا فحمها. معمل عظيم لكن مع خدم أذلاء، مكننة معطاءة ،لكنها مكننة الإنسان أيضاً. واغتصاب هائل لكل ما عرفت بشريتنا - كمسلوبين فيها - أن تحافظ عليه من خاص وكامل ونظيف . الآلة نعم. الآلة التي لم نعرفها قطّ، لكنّها تسحق وتطحن وتبلد الشعوب.

في الحصيلة، كم هو ضخم هذا الخطر ..

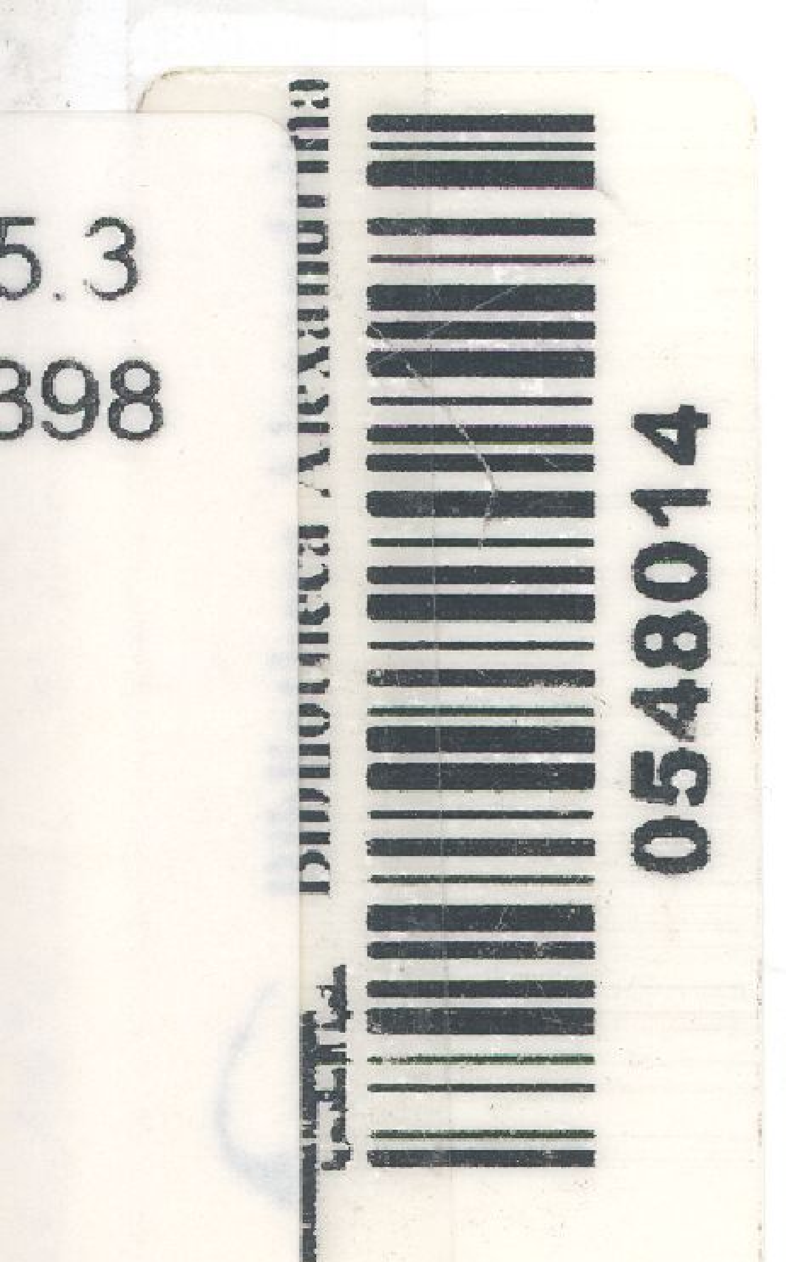
وفي الحصيلة أيضاً ، إذا لم تتخذ أوروبا الغربية، من ذاتها في أفريقيا وأوسيانيا ومدغشقر، أي على أبواب أفريقيا الجنوبية. وجزر" الأنتييّه "، أي أيضاً على أبواب أمريكا - المبادرة بسياسة الوطنيات الخاصة - مبادرة سياسية جديدة قائمة على احترام الشعوب والثقافات.

ماذا أقول ؟ وإذا لم تعزّز أوروبا الثقافات المحتضرة ولم تحثّ ثقافات جديدة. إذا لم تلعب دور الموقظ للأوطان والمدنيات. وبمعنى آخر ، إذا لم تأخذ بعين الاعتبار المقاومة الرائعة التي تخوضها الشعوب المستعمرة والتي ترمز لها أحياناً فيتنام بصفة باهرة وأيضاً أفريقيا الجزائر، فإن أوروبا ستخطف من ذاتها فرصتها النهائية، وستجرّ على نفسها ، بأيديها ذاتها وشاح الظلمات المميتة.

الأمر الذي يعني بوضوح أن إنقاذ أوروبا ليس مسألة ثورة في الأساليب. إنما قضية ثورة بكل بساطة. بل الأفضل : إنها قضية (الثورة): التي تستبدل الاستبداد الشديد للبرجوازية المعدومة مما هو إنساني ، بانتظار مجتمع خال من الطبقات، ورجحان الطبقة الوحيدة التي ما زالت لها مهمة عالمية، حيث أنها تعاني في لحمها من مختلف شرور التاريخ، من كل الأمراض العالمية، أقصد البروليتاريا ..

أصوات مناهضة للاستدمار

".. إنّ القضية بالنسبة لنا ، ليست محاولة تكرار طوباوي وعقيم ، إنما هي مسألة تجاوز. حيث لا نريد إحياء مجتمع ميت .إذ نترك ذلك لهواة طاردي الأرواح الشريرة . كما لا نريد أيضاً هذا المجتمع الاستدماري الراهن الذي يرغبون في استدامته وهو أكثر رداءة من اللحم الذي يتفسّخ تحت الشمس . بل نسعى لخلق مجتمع جديد بمساعدة إخواننا العبيد ، مجتمع غنيّ بكل الطاقة الإنتاجية الحديثة وحارّ بكل الأخوة القديمة . "





N° ISBN : 9947-21-311-0